السياسة الإسلامية
في عهد النبوة

تأليف

عبد المتعال الصعيدي

الكتاب: السياسة الإسلامية في عهد النبوة

الكاتب: عبد المتعال الصعيدي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الصعيدي ، عبد المتعال
السياسة الإسلامية في عهد النبوة / عبد المتعال الصعيدي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٢٤ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٦ – ٧٣ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٢٣٢ / ٢٠٢٠

السياسة الإسلامية
في عهد النبوة





بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون"

صدق الله العظيم

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسله لهدي الخلق في دنياهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم، وجعل الوصول إلى الحق غايتهم، وإرادة الخير للناس رائدهم.

وبعد- فإن الدين قواعد صريحة لا احتيال فيها، ولا لف ولا دوران في غاياتها، لأنه يقصد إلى خير الناس، والقصد إلى الخير لا يحوج صاحبه إلى مداراة، لأنه ليس فيه ما يخاف أمره، أو يخشى إطلاع أحد عليه.

والسياسة على عكس الدين في هذا كله، فلا تسير دائماً على قواعد صريحة، ولا تتعفف عن قصد الاحتيال واللف والدوران، وهي بهذا نوعان:

١- سياسة ملتوية تقصد إلى نفع قوم وضر آخرين، فتبيح كل وسيلة في الحصول إلى غاياتها، ولا تتورع عن إثم، ولا تتعفف عن ظلم، وتذهب في هذا مذهبها المشهور- الغاية تبرر الوسيلة- وقد وضع مكيافيلي الإيطالي في هذه السياسة كتاباً سماه الأمر، وقد نقله الأستاذ محمد لطفي جمعة إلى العربية، ولهذا ينسب إليه ذلك النوع من السياسة. فيقال له- السياسة الميكيافيلية- وهي سياسة لا يبيحها دين، ولا يرضاها خلق شريف، ولا يمكن أن يسود بها سلام بين الأمم، لأنها تقوم على أساس التفريق بين الناس، وتقسيم الشعوب إلى شعوب حاكمة وشعوب محكومة، ولا شك أن هذا يثير التنافس بين الشعوب القوية في

الاستيلاء على الشعور الضعيفة، ويزرع العداوة والبغضاء في قلوب الشعوب الضعيفة للشعوب القوية، فتقوم الحروب بين الشعوب القوية في ذلك التنافس الآثم، وتقوم الحروب بين الشعوب القوية والضعيفة في تلك العداوة بينهم.

وقد أخذت أمم أوربا الحديثة بهذه السياسة الآثمة، فملأت الأرض حروباً طاحنة أتت على كل شيء فيها، وعمتها خراباً وتدميراً، فلا تنتهي حرب إلا لتقوم أخرى أشد منها، ولا يعلم إلا الله ماذا تكون نتيجة هذه الحروب على العالم، لأنها بلغت من الخطورة ما بلغت، واستعمل فيها من الآلات المدمرة ما يخشى منه على هذا العمران.

ولو كانت هذه الحروب تقصد إلى غاية شريفة لهان أمرها، ولكان هناك أمل في انتهائها باتفاق الناس على هذه الغاية، ولكن هذه الحروب لا غاية لها إلا الحكم في الناس، والوصول إلى المادة التي أصبحت في عصرنا أعلى الغايات، وأشرف المقاصد، وهذه الغاية لا يمكن يتفق أحد فيها. فلا يمكن أن تنتهي الحروب القائمة بسببها.

٢- سياسة صريحة عادلة، تقصد الوصول إلى الحق، وتبغي الخير للناس، وتسلك الوسائل المشروعة في الوصول إلى غايتها، وقد تحتال في هذا ولكنها لا تأتي فيه بما يأباه الخلق الكريم، لأنها تسعى إلى أشرف الغايات، وتقصد إلى أشرف المقاصد، وتعمل على رفع لواء الحق، وتجاهد في نصر الفضيلة على الرذيلة، فلا يمكن أن تستبيح في ذلك وسائل غير مشروعة، لأن الغايات تتأثر بوسائلها، فإذا كانت

وسائلها مشروعة كان غاياتها مشروعة أيضاً، وإذا كانت وسائلها غير مشروعة كانت غاياتها غير مشروعة أيضاً، وفي هذا يقال لمن تزني لتتصدق بأجر زناها، ليتها لم تزن ولم تتصدق.

وقد جرى الإسلام على هذه السياسة العادلة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده، لأن عهد خلافتهم كان أشبه شيء بعهد النبوة، فاتبع الإسلام في ذينك العهدين سنن هذه السياسة في سياسته الداخلية والخارجية، يبغي الخير لأهله، ولا يضمر سوءاً لغير أهله .

فكان يأخذ في سياسته الداخلية باللين في غير ضعف، وبالشدة في غير عنف، ويجعل أمر الحكم شورى بين المسلمين، كما قال تعالى في الآية ١٥٩- من سورة آل عمران (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين).

وكان يأخذ فيها بالحزم واليقظة، فيتتبع أخبار قومه، ويبث عيونه بينهم ليأتوه بها، حتى لا يغفل عن كل صغيرة وكبيرة بينهم، وكان يبغي بهذا خيرهم، ويحذر الفتنة عليهم، وهذه يقظة محمودة في السياسة، لأن المسلمين كانوا يعيشون بين المنافقين واليهود، فكانوا في حاجة إلى سياسة يقظة ترعاهم بينهم، وتبطل ما يراد بهم من فتنة وكيد، وكانت هذه السياسة تسيء المنافقين، فينظرون إليها بعين البغض، وهذه العين تجعل المدح ذماً، وتصير الحسن قبيحاً، وقد حكى الله هذا عنهم في الآية-

٦١- من سورة التوبة (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذنُ خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم).

وكذلك كان يأخذ بتلك السياسة العادلة في سياسته الخارجة، فلم يحد عن قواعد العدل، والإنصاف فيما بين المسلمين وغيرهم من الشعوب المخالفة لهم، بل نظر إلى الناس كافة كأنهم أمة واحدة، لا يميز بعضهم على بعض بشيء مما يثير العداوة بينهم، وقد نادى بها وحدة إنسانية صريحة في الآية- ١٤- من سورة الحجرات (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبير).

وكان من أثر هذه النظرة الكريمة في الإسلام أن أخذ يدعو إلى الوئام، ويأمر المسلمين بالدخول في السلم العام، وينهاهم أن يعتدوا على من لم يعتد عليهم من الأمم، ويرغبهم في الصفح عمن اعتدى عليهم، ويحذرهم من الظلم والبغي على غيرهم، كما قال تعالى في الآية- ٢٠٨- من سورة البقرة (يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين) وفي الآية- ٦١- من سورة الأنفال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) وفي الآية- ١٩٠- من سورة البقرة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وفي الآية- ٤١- من سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله

إنه لا يحب الظالمين) وفي الآية– ٨– من سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين).

وقد جاء سبيل الدعوة في الإسلام موافقاً لتلك النظرة الإنسانية العامة، فهي دعوة سلمية تعتمد على الإقناع، وتأخذ الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تأخذهم بشيء من العنف أو القوة، كما قال تعالى في الآية– ١٢٥– من سورة النحل (أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين).

وقد أردت أن أفصل هذه السياسة في كتابين: أولهما كتاب السياسة الإسلامية في عهد النبوة، وثانيهما كتاب السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، وهما العهدان اللذان يحسبان على الإسلام، ويهمنا أمرهم معشر المسلمين، وهذا هو الكتاب الأول منهما، وسيتلوه الكتاب الثاني إن شاء الله تعالى.

وقد أجمل الله السياسة التي سنفصلها في هذين الكتابين في قوله تعالى في الآية– ٨– من سورة المائدة (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) عدل وتقوى شاملان، ينعم بهما الداخل في الإسلام والخارج عنه، ولا يختص بهما المسلمون وحدهم، فالفضل في تقرير ذلك للقرآن الكريم، ولا فضل للكتابين إلا في ذلك التفصيل، والله هو الهادي إلى سواء السبيل؟

عبد المتعال الصعيد

السياسة الداخلية والخارجية قبل الهجرة

السياسة الداخلية قبل الهجرة

(١) التلطف في بدء الدعوة

تتعلق السياسة الإسلامية بأمور الحكم الداخلية والخارجية، ويتعلق الدين بالعبادات والمعاملات بين الأفراد، وللدين مع هذا حكمه على السياسة، ليرشدها إلى السبيل القويم، ويصرفها على الطرق الملتوية التي تسلكها السياسة الآثمة.

وقد أخذت الدعوة الإسلامية بالسياسة الحكيمة من أول ظهورها، فسارت هذه السياسة معها جنباً لجنب، ترعاها بحكمتها، وتعمل على نجاحها بكل فطنة وبراعة، وتسلك بها السبل التي تبعدها عن وسائل القوة ما أمكنها، لتحفظ دماء أتباعها، وتجذب بالحكمة أعداءها إليها، ولا تنفرهم باستعمال وسائل العنف، فسلكت في أول ظهورها وسيلة التلطف، وأخذت فيه بسنة التدرج، وعملت في هذا بما تقضي به فلسفة النشوء والارتقاء قبل أن يهتدي إليها داروين الانجليزي في عصرنا، لأن الله تعالى لم يرد أن يأخذ الناس فيها بما كان يأخذهم به في الشرائع السابقة، من آيات العذاب التي كانت تقضي عليهم، ولا يمهلون فيها كما أمهلت أمة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا يجاوزون الحد في الكفر والطغيان، ولم يكونوا بحيث يرجى منهم هداية أو إيمان، فأخذ بعضهم بالطوفان كقوم نوح عليه السلام، وأخذ بعضهم بالريح العاتية كقوم هود عليه السلام، وأخذ بعضهم بالرجفة كقوم صالح عليه السلام،

إلى غير هذا مما أخذت به الأمم البائدة فذهبت به آثارهم، ولم يبق بعدهم إلا حديث عذابهم.

وقد أراد قوم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمثل تلك الآيات، فلم يجبهم إليها، لأن الله يريد أن يأخذهم برحمته ولطفه، ويمهلهم إلى أن يؤمنوا بهذه الدعوة، وقد أراد بقاءها من بين الشرائع التي أرسل بها الرسل، فلتبق أمتها لتؤمن بها، وتؤدي رسالتها إلى الناس كافة، وفي هذا يقول الله تعالى في الآيتين- ٣٢، ٣٣- من سورة الأنفال (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فلم يكن شأنهم في هذا كشأن الأمم السابقة، ولهذا أمهلوا ولم يؤخذوا بآيات العذاب كما أخذ غيرها.

وكان من سياسة التلطف في بدء هذه الدعوة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبدأ بها رؤساء قومه، فلم يقصدهم بها في أول أمره، كما قصد موسى فرعون في أول أمره، لأن هذا يثير عداوتهم لها في أول أمرها، ويجعلها مفاجأة لا تنجح في جذب أحد إليها، وتحمل هؤلاء الرؤساء على أن يقضوا عليها قبل أن يفتتن أحد بها.

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في أول أمره من كان يثق به، فدعا من أهل بيته زوجه خديجة رضي الله عنها، وابن عمه عليا رضي الله عنه، وكان غلاماً قد أخذه من عمه أبي طالب لكثرة أولاده، وزيد بن

حارثة مولاه، وكان قد تبناه فصار يدعي له، ودعا من غير أهل بيته أبا بكر رضي الله عنه، وكان صديقاً له قبل بعثته.

وقد أكرمه الله بإسلام زوجه خديجة رضي الله عنها، فإنها وآزرته على أمره وخففت عنهن ما كان يلقاه من أعباء رسالته، إذ كان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، فيهون عليه ما يلقاه منهم.

وقد أكرمه الله أيضاً بإسلام أبي بكر رضي الله عنه، لأنه كان رجلاً تاجراً ذا خُلق ومعروف، مؤلفاً لقومه، محبباً سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته.

فلما أسلم جعل يدعو من يثق به من قومه ممن كان يغشاه ويجلس إليه، وقد أسلم بدعوته عثمان بن عفا، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة ابن عبيد الله، وقد جاء بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له، فأسلموا بين يديه، وآمنوا بدعوته.

وهكذا آمن به أولئك الثمانية في أول أمره من أهل بيته، ومن أقرب أصدقائه إليه، وكان إسلامهم على ذلك الوجه من التلطف في الدعوة، فظهرت في أول أمرها رفيقة هادئة، لم تستثر جباراً من جبابرة الأرض،

فيقابلها بالشدة والعنف، ويحاول القضاء عليها بالطغيان والظلم، ويشتد الأمر بينها وبينه، إلى أن يأخذه الله بعذابه، فيهلكه وقومه بآية من الآيات، ولا تنجح الدعوة فيهم، ولا يهتدي بها أحد منهم.

وقد آمن بها أولئك الثمانية لأنهم اقتنعوا بصدقهم من أنفسهم، ولم يطلبوا معجزة على صدقها، كما طلب أولئك الجبارون المعجزات من قبلهم، بل رأوها تدعوهم إلى مكارم الأخلاق، وتأمرهم بإخلاص العبادة لله، وتنهاهم عن عبادة الأوثان والأصنام، إلى غير هذا مما تشهد بصحته الفطرة السليمة، ويؤمن بصدقه العقل الصحيح، فكفاهم هذا في الإيمان بها، ولم يحتاجوا معه إلى آية على صدقها، وما أقوى الإيمان الذي يقوم على أساس الإيمان بالدعوة لذاتها، ولا يحتاج إلى شيء آخر خارج عنها، وأين منه ذلك الإيمان الذي يأخذ النفوس بالمعجزات، فلا يثبت إلا في عهدها، ثم يأخذ في الضعف شيئاً فشيئاً كلما بعد به العهد، وطال عليه الأمد، إلى أن يمحى أثره في النفوس، فيحل الكفر فيها محله، وتعود إلى مثل ما كانت عليه قبل الإيمان، وتنسى تلك المعجزات أو تشك في أمرها، وتؤثر الكفر على الإيمان الذي لم تأخذه عن اقتناع به.

(٢) إخفاء الدعوة

استمرت الدعوة الإسلامية تأخذ قريشاً بسياسة التلطف، يدعو الآخذون بها من يثقون به من أصحابهم فلم تحدث ضجة بين قريش، ومرت أيامها الأولى عليها وهي لا تشعر بأنها أمام دعوة ستقلب كل

شيء فيها، وتغير معالم حياتها، وكان الذين آمنوا بهذه الدعوة إذا أرادوا الصلاة أو نحوها من أمور دينهم، قصدوا بعض الشعاب التي حول مكة، فأدوا ما يريدونه بعيداً عن قومهم.

ولم يزالوا على هذا الحال حتى خرج سعد بن أبي وقاص في جماعة من أصحابه إلى بعض شعاب مكة، ليؤدوا صلاتهم فيه على عادتهم، فرآهم نفر من مشركي قومهم وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، وانتقل الأمر بينهم من المناكرة إلى المخاصمة والمقاتلة، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا منها بلحى جمل من العظام المنثورة هناك فشجه.

وهنا رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يزيد شيئاً في سياسة التلطف، حتى لا يمكن قومه من مناهضة دعوته في بدئها. ولا يمكنهم من فتنة من آمن به قبل أن يتمكن الإيمان من قلبه، فلجأ إلى إخفاء دعوته عنهم، وبالغ بهذا في سياسة التلطف التي اختارها لأول دعوته، لأنه لا يريد الاصطدام بقريش في هذا العهد، بل يريد أن يتفرغ لتمكين دعوته من نفوس أتباعه، حتى يظهر بهم وقد امتزجت دعوته بدمائهم، فيضحوا بكل عزيز لديهم، ولا يمكن قومهم أن يفتنوهم فيها بما سيلاقونه من التعذيب والتشريد.

فاختار له ولأتباعه داراً منعزلة عن دور مكة، وكانت تقع بأصل جبل الصفا، وهو من مشاعر مكة بلِحف جبل أبي قبيس، ويوجد هذا الجبل بالجنوب الشرقي من مكة. وكانت هذه الدار لواحد من أتباعه يسمى

الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فاتخذها مختبأ لهم، يدعو فيها سراً إلى دينه، ويعلم فيها أتباعه أصول هذا الدين وفروعه، ويؤدي فيها شعائره من صلاة ونحوها، فتغنيه عن الذهاب إلى تلك الشعاب التي كان يؤدي فيها هذه الشعائر أولاً، فيراه فيها من يذهب إليها من قومه، ويكون هذا سبباً في اصطدامه بهم.

وقد مكث في هذه الدار أربع سنين يدعو فيها سراً، ويبالغ في التخفي بدعوته عن قومه، حتى مرت هذه السنون بهم وهم لا يشعرون بها، ولا يأبهون بأمرها، ولا يدركون خطر ما يدبر في هذه الدار من حوادث جسام، وأمور عظام، ستظهر لهم في يوم من الأيام، فتشغلهم عن كل شيء في حياتهم، وتكون وحدها حديث مجالسهم وأنديتهم.

وكانت سياسة التلطف في الدعوة لا تجذب إليها إلا القليل من قريش، فسارت بها في بطء وتمهل، ولكنه كان الطريق الآمن لها، والوسيلة لجمع المخلصين من الأهل والأصحاب، فلا يدخل فيها إلا من يقتنع بصدقها، وإلا من يثق به أصحابها، ولا ينحشر بينهم من يتجسس عليهم، أو يسعى في إفساد أمرهم.

على أنه لابد أن قريشا كان يبلغها شيء من أمر هذه الدعوة، ويصلها شيء من أسرارها، ولكنه كان يصلها في صورة مبهمة لا تثيرها عليها، ولا تحركها إلى مناهضتها، وقد كان له فائدة في تخفيف شيء من أمرها عليهم، وفي إحداث شيء من الإلف لها في نفوسهم، حتى إذا ظهرت بينهم لا يأخذهم بها عامل المفاجأة، فلا يسرفون في محاربتها،

ولا يطغون في مناهضتها كما طغت الأمم من قبلهم، فيأخذهم الله بمثل ما أخذهم به من العذاب، ولا يمهلهم حتى يعرفوا صدقها من أنفسهم. فما أبرع تلك السياسة التي يكون لها كل تلك الآثار، ولا تقتصر فائدتها على الأتباع والأنصار، بل تتعداهم إلى الخصوم والأعداء، فتقوي من نفوس أتباعها وأنصارها، وتستعين بالزمن على تخفيف خصومة أعدائها، ليشمل نفعها أنصارها وأعداءها، ولا تصير إلى كارثة ينتهي بها أمرها.

(٣) التدرج في إظهار الدعوة

مكث النبي صلى الله عليه وسلم تلك المدة في الدعوة السرية، وهو يأخذ بتلك السياسة التي تجنبه الاصطدام بقومه، حتى آمن به اثنان من أقوى قومه بأساً وشجاعة: وهما عمر بن الخطاب السعدوي، وحمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان إسلام عمر بعد إسلام حمزة، فلما أسلم كبر من في المختبأ (دار الأرقم) تكبيرة سمعها كل من بالكعبة، وفرحوا بإسلامه فرحا عظيما، لأنه كان أقوى أهل مكة، وكان لا يخاف في الحق لومة لائم.

فلما أسلم قال للنبي صلى الله عليه وسلم:

يا رسول الله، ألسنا على الحق؟

قال: بلى.

فقال:

ففيم الاختفاء؟

ولم يزل بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى استجاب له في الجهر بالدعوة، فجمع من آمن به في تلك الدار التي كان يجتمع بهم فيها سراً، ثم خرج بهم إلى الكعبة في صفين: عمر أمام أحدهما، وحمزة أمام الثاني، وكل واحد منهم شاهر سيفه، فأخذوا طريقهم إلى الكعبة في هذا النظام الذي لم يكن للعرب عهد به، فلما وصلوا إلى الكعبة صلوا فيها خلف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجعوا في ذلك النظام إلى الدار التي خرجوا منها، فأصابت قريشاً كآبة لم يصبهم مثلها، لأنهم رأوا ديناً جديداً يخالف دينهم، والدين ينزل من الناس منزلة الروح من الجسد، فيعظم عليهم أمره، ويؤلمهم كل ما يؤلمه.

(٤) البدء بدعوة الأقربين

انتقل النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بالدعوة إلى سياسة تؤدي إلى الاصطدام بقريش، ولكن الله تعالى لز يرد له الاصطدام بهم كلهم في أول الجهر بدعوته، ليتدرج به في طريق الدعوة، ويأخذ به في طريق التلطف في الدعوة الذي اختاره له، فأمره أن يقتصر أولا على دعوة عشيرته الأقربين، وأنزل في هذا قوله في الآيات- ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦- من سورة الشعراء (وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون).

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين، وهم بنو عبد المطلب، وكانوا خمسة وأربعين، وصنع لهم طعاماً. فلما أكلوا قال لهم:

يا بني عبد المطلب، إن الله قد بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرني على القيام به؟

فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبي لهب، فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، فإن أسلمتوه إذن ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم.

فقال عمه أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

وقيل إن عشيرته الأقربين هم بنو عبد مناف. وقد جمعهم فقال لهم:

إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون. ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً، أو لنار أبداً.

فتكلم القوم كلاماً ليناً وتكلم أبو لهب بما سبق، ورد عليه أبو طالب بما سبق.

وهنا تتجلى براعة الإسلام وسماحته، وهنا تظهر مرونته السياسية، فيقبل من يعاونه على دعوته ولو لم يؤمن بها، لأن أبا طالب أراد أن يقوم بحماية النبي صلى الله عليه وسلم لقرابته منه على أن يبقى على دين قومه، ولا يؤمن بما جاء به، ووافقه على هذا كثير من بني عبد مناف، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه ذلك، ورضي أن يقوم بحمايته على أن يبقى على دينه، ولو كان غيره في مكانه من أهل الجمود في الدين والسياسة لطلب منه أن يؤمن أولا، ولرفض حمايته إذا أبى إلا أن يبقى على شركه، ولكن الإسلام يمتاز على غيره من الأديان بأنه يتسع لأهله وغيرهم. فلا يأبى أن يمد يده لمن يعاونه في أمره ولو لم يؤمن به.

وقد وقعت قريش بهذا من مشكلة من أخطر المشاكل السياسية التي وقعت فيها، لأنها صارت أمام بطن قوية من بطونها توافقها في التمسك بدينها، وتخالفها فيما رأته من حماية هذه الدعوة التي تناهضها، فهي تخشى إن أغضبت هذه البطن أن تحملها على الإيمان بهذه الدعوة، فيؤثر هذا في غيرها من البطون، وتتفلت منها إلى هذه الدعوة بطنا بعد بطن، وهي مع هذا لا يمكنها أن تغض النظر عن هذه الدعوة بعد أن ظهرت سافرة بينهما.

فجعلت قريش تتروى في أمرها بإزاء هذه المشكلة الخطيرة، ثم رأت أن تأخذ تلك البطن التي وقفت في نصف الطريق بينها وبين هذه

الدعوة باللين تارة، وبالشدة أخرى، فإذا عاملتهم بالشدة لم تمض فيها إلى الحد الأقصى، ولم تصرفها إلى حد الطغيان الذي يعجل بعقابها في الدنيا، وذلك تدبير من الله تعالى لأهل هذه الدعوة، ولطف منه بهم، لأنه يعلم أنهم سيخالفون ما يخالفون ثم يصيرون إلى الإيمان بها.

(٥) دعوة قريش

فلما وجد النبي صلى الله عليه وسلم أنه أصبح في حماية عمه أبي طالب وبني عبد مناف، تدرج من دعوتهم إلى دعوة بطون قريش كلها، فصعد على جبل الصفا وجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي– لبطون قريش. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب، وجاءت قريش كلها.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبا.

فقال لهم: فإني لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟

فأنزل الله تعالى فيه على ما يقال[1] سورة المسد (تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد).

وهنا بدأ الكفاح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم، وقام أبو طالب بحمايته وهو على دين قومه، فكانوا يراعون في كفاحهم حمايته له، ولا يشتطون في ذلك الكفاح، لئلا يغضبوا عمه أبا طالب، وكان شيخ قريش فضلاً ونبلاً، وله من سنه وانتسابه إلى عبد المطلب ما جعله موضع احترامهم وهيبتهم، وقد زاد في هذا أنه كان يحافظ على دينه، ولا يؤمن بهذه الدعوة التي يحميها.

وقد ذهبوا يوماً إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه.

فقال أبو طالب لهم قولاً رقيقاً. وردهم رداً جميلاً.

ثم ذهبوا إليه بعد هذا فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

---

(1) رأيي كما ذكرته في غير هذا الكتاب أن أبا لهب في السورة نكرة لا معرفة، فلا يكون متعينا فيه.

فعظم هذا على أبي طالب، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا كذا وكذا- الذي كانوا قالوا له- فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر فبكى، ثم قال.

فلما ولى ناداه أبو طالب: أقبل يا ابن أخي. فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

فلما عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان النبي صلى الله عليه وسلم، ذهبوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهدُ فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله[1] ونصره، واتخذه ولدا فهو لك؛ وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك؛ وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله. فإنما هو رجل برجل.

فقال أبو طالب لهم: لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم؟ وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً.

---

(1) أي دينه إذا قتل.

فهذا كله كان من أثر السياسة الحكيمة التي اتبعها الإسلام في قبول حماية أبي طالب وإن لم يؤمن به، وقد بلغ من توفيق هذه السياسة أنها كادت تحمل أبا لهب أشد خصوم الإسلام على حمايته، وذلك أن أبا سلمة كان ابن أخته، وكان قد هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر إليها من المسلمين، ثم رجع إلى مكة مع من رجع إليها منهم، فنزل في جوار خاله أبي طالب، فمشى إليه قومه بنو مخزوم وقالوا له: يا أبا طالب، ما هذا؟ منعت منا ابن أخيك محمداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟

فقال أبو طالب لهم: إنه استجار بي. وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي.

فلما رآهم أبو لهب يصنعون هذا مع أخيه أبي طالب قام إليهم فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لنقو من معه في كل ما قام به حتى يبلغ ما أراد[1].

فقالوا لأبي لهب: بل ننصرف عنه يا أبا عتبة.

وكانت الأيام تزيد ما بين المسلمين وبني عبد مناف قوة، وتجعل ما بينهم شبه تحالف لا تنفصم عراه، ولا تضعف قوته، حتى ضاقت قريش بذلك التحالف بينهم، فأجمعت أمرها على مقاطعة بني هاشم وبني

---

(1) هذا يؤيد ما ذكرته سابقاً في سورة المسد من عدم حملها عليه، لأنه لا يعقل منه هذا إذا كان هو المقصود منها.

المطلب ولدى عبد مناف، وإخراجهم من مكة، لأنهم كانوا أشد بني عبد مناف دفاعاً عن المسلمين، فانحازوا في شعب أبي طالب، وأخذت قريش تضيق عليهم، فلا تبيعهم شيئاً ولا تبتاع منهم، إلى غير هذا من وجوه المقاطعة، وكتبت بهذا صحيفة وضعتها في جوف الكعبة.

فجهد القوم في ذلك الشعب، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وقد استمروا فيه ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء، لا يصلهم شيء من الطعام إل خفية، ثم رق لهم نفر من أشراف قريش، فقاموا يطالبون بنقض هذه الصحيفة، وهم هشام بن عمرو العامري وزهير ابن أبي أمية المخزومي، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختري بن هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي، وقد اتفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال:

يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى؟ لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل: كذبت.

فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقال أبو البختري: صدق زمعة.

وقال المطعم: صدقتما وكذب من قال غير ذلك.

وقام هشام فوافقهم على ذلك.

ثم قام المطعم إلى الصحيفة فشقها، فخرج القوم إلى مساكنهم وزالت عنهم تلك الشدة.

(٦) الهجرة إلى الحبشة

ثم مضى الأمر بين قريش والمسلمين على هذا الحال، وكان أكثر المسلمين تعرضاً لأذى قريش من لم يكن له نسب قوي بينهما، كبلال بن رباح وخباب بن الأرت، وكان بلال مملوكا لأمية بن خلف، فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به، فيقول وهم يلعبون به– أحد أحد– وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة إلى الرمضاء، وهي الرمل الشديد الحرارة، ولو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا نزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد. وتعبد اللاَّت والعُزى. فيقول: أحد أحد. وقد اشتراه منه أبو بكر.

وكان خباب له مولاة تسمى أم أنمار، فكانت تأتي بالحديدة المحمَّاة فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده هذا إلا إيماناً، وقد جاء يوماً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا. فقعد النبي صلى الله عليه وسلم محمراً وجهه. فقال: إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد

ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت. لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.

أما من كان له نسب في قريش فكانوا لا يبلغون في أذاه إلى ذلك الحد، فقد روى أن رجالا من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، منهم سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، فقالوا لهشام بن الوليد وخشوا شره: إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنا نأمن بذلك في غيرهم. فقال لهم: هذا فعليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا. فتركوه ونزعوا عنه وقالوا: اللهم العنه، من يغرر بهذا الحديث؟ فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلا.

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلك طريقاً آخر من التلطف في الدعوة، يقي به أصحابه شر ذلك العذاب، ويطاول به قومه الذين لم ينقطع أمله فيهم، لأنهم كانوا على ذلك الحال الذي سبق، يشتدون ثم يلينون، ويقسون ثم يرقون، فلا يمضون في القسوة والشدة إلى النهاية، ولا يفرطون في أمرهم كإفراط الأمم السابقة قبلهم.

فرأى من حسن السياسة أن يبعد أصحابه عن مكة، ليرتاحوا إلى حين من ذلك العذاب، ويخفف من شدة مناهضة قومه له، فجمعهم وقال لهم: تفرقوا في الأرض، فإن الله سيجمعكم. فسألوه عن الوجه،

فأشار إلى الأرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

وكان أهل الحبشة يدينون بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام مما كانت عليه قريش، وإذا كان الإسلام لم يأب حماية بعض المشركين من أهل مكة، فإنه لا يأبى حماية أهل النصرانية من باب أولى، وهو دين سمح مرن، لا يجمد أمام المصلحة ولا يتعصب، ولا يضيق صدره بالسياسة التي يكون فيها خير له، ولو ألجأته إلى أن يضع يده في يد دين يخالفه.

وقد كان في بلاد العرب نصارى كأهل نجران، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعد أصحابه عن بلاد العرب، حتى لا يكون لقريش سبيل إليهم، ولا مطمع في التأثير على من يقبل حمايتهم، وقد بقى هو في مكة مع نفر من أصحابه الذين لم تقو قريش على أذاهم، ولم يهاجر مع من هاجر إلى الحبشة، لأن رسالته لابد أن تبدأ أولا بالعرب، لأنهم أقرب الشعوب إلى فهمها، إذ نزلت بلغتهم، وكانت معجزتها قرآنا عربياً لا يدرك إعجازه غيرهم.

وقد هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، فهاجر في المرة الأولى عشرة رجال وخمس نسوة، فلبثوا فيها ثلاثة أشهر، ثم وصلتهم شائعة بأن قومهم أسلموا، فرجعوا إلى مكة فوجدوا أهلها باقين على دينهم، وقد منعوهم من دخولها إلا من وجد له مجيرا من المشركين، فدخل كل واحد منهم في جوار من قبل جواره منهم.

وقد دخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم رد عليه جواره، لأنه كان شديداً على المسلمين، وقد اجتمع عثمان يوما هو ولبيد بن ربيعة في بعض أندية قريش، فأنشد لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان له: صدقت.

فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان له: كذبت، نعم الجنة لا يزول.

فقال بعض أهل المجلس فلطم عين عثمان فاخضرت، فقيل له: لقد كنت في ذمة منيعة، وكانت عينك غنية عما لقيت. فقال: جوار الله آمن وأعز، وعيني الصحيحة فقيرة إلى ما لقيت أختها.

ثم هاجر المسلمون ثانياً إلى الحبشة، وكانوا هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا، وثماني عشرة امرأة، فأقاموا بها إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد أكرم ملكها وفادتهم، وقبل حمايتهم من قومهم، وقد أرسلت قريش إليه رجلين بهدايا ليردهم إليها، فردهما خائبين، ولم يقبل أن يمكن أولئك المشركين من قوم لا يعبدون الأصنام مثله.

(٧) العرض على القبائل

أليس النبي صلى الله عليه وسلم من قريش أن تقوم بنصرته، وكانت عنجهية الجاهلية قد بلغت فيها أقصى حد، لأنها وصلت في ذلك العهد إلى درجة الزعامة في جزيرة العرب، وقد اتفقت كلمتها بعد حروب الفجار بينها وبين كنانة، وصارت إلى ثراء لا يقدر باتجارها في الأسواق التي كانت تقوم بمكة في مواسم الحج، كسوق عكاظ وذي المجنة، وكان العرب يقصدونها من سائر بلادهم، وكان وفود الأمم المجاورة لهم يبعثون إليها بتجارتهم، وهذا إلى رحلتيها التجاريتين إلى اليمن والشام كل سنة، وهما الرحلتان اللتان وردتا في سورة قريش (لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف).

فصارت قريش بهذه التجارة الواسعة إلى حالة شغلتها بالدنيا ومادتها، وبعدت بها عن الدعوة الإسلامية التي تسمو بالروح، ولا تجعل للمادة هذا الشأن الذي تجعله لها قريش، وقد بلغ من تغاليها في أمر المادة أن شكا منها بعض شعرائها، فقال:

الهي قريشاً عن المجد الأساطير	ورشوةٌ كما ترشى السفاسير[1]
وأكلها اللحم بحتاً لا خليط له	وقولها رحلت غير أتت عير

(1) السفاسير: السماسرة.

وهذا إلى ما كان لها من الزعامة الدينية على العرب، إذ كان إليها أمر الكعبة التي كانوا يحجون إليها، فلم يكن من السهل عليها أن تفرط في تلك الزعامة التي تستفيد منها مادياً وأدبياً.

فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرض دعوته على القبائل العربية التي تفد إلى مكة في موسم الحج، وعلى البلاد المجاورة لمكة كالطائف، وقد سار إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان رؤساؤها عبدياليل ومسعودا وحبيبا أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فعرض عليهم أن ينصروه ويؤمنوا به، فردوا عليه ردا قبيحا، فلما لم ير منهم خيراً طلب منهم ألا يخبروا قومه بالتجائه إليهم، فلم يجيبوه إلى هذا وأخبروا قومه بفعله، فاشتد غضبهم عليه، ولم يمكنوه من دخول مكة، فأرسل إلى المطعم بن عدي يخبره أنه سيدخل في جواره، فأجابه المطعم إلى ذلك، وتسلح هو وأبناؤه ليمنعوا من يقصده بسوء، ثم توجهوا به إلى الكعبة فطاف بها، فقال بعض المشركين للمطعم، أمجير أنت أم تابع؟

فقال: بل مجير. فقالوا: إذن لا تخفر ذمتك.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينقطع عن عرض دعوته على القبائل، فكان بعضهم يرد رداً جميلاً ولا يقبل حمايته، وبعضهم يرد رداً قبيحاً. وقد عرض نفسه على بني عامر، فقال رجل منهم. يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش. لأكلت به العرب. ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر بعدك؟ فقال له: الأمر إلى

الله يضعه حيث شاء. فقال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

وهذه هي سياسة الصراحة التي لا تسمو إليها تلك القبائل البدوية، وقد كان الإسلام دعوة دينية كريمة لا تهمه تلك الغاية التي أرادها ذلك الرجل، ولا يقبل أن يساوم عليها في دعوته، فمن أراد أن يؤمن بها فليكن إيمانه خالصاً لوجه الله تعالى، لا لغاية من إمارة أو ملك أو نحوهما من أمور الدنيا، ولو كان غير النبي صلى الله عليه وسلم من طلاب الدنيا في مكانه لقبل تلك المساومة، ويفعل الله بعد هذا ما يفعل، فيأخذهم بسياسة الخداع، ومن السهل على هذه السياسة نقض العهود، ونبذ المواثيق.

(٨) العرض على أهل يثرب

ثم أذن الله لهذه الدعوة أن تأخذ حظها في الظهور، وقد مكثت أكثر من عشر سنين في مكة. فلم يؤمن بها إلا قليل من أهلها، وقد هاجر أكثرهم منها إلى الحبشة، فساق إليها نفراً من أهل يثرب في موسم من مواسم الحج، وهذه المدينة تقع بين مكة والشام، وكان يسكنها قوم من العرب واليهود، وكان العرب ينقسمون إلى قبيلتين (الأوس والخزرج) وقد انقسموا على أنفسهم وقامت بينهم حروب أضعت أمرهم، أما اليهود فقد وضعوا أيديهم على أهم المرافق في هذه المدينة، وكانت بأيديهم صناعتها وتجارتها وما إلى هذا من مرافقها، فاتسعت بها ثروتهم، وقامت لهم بها حصون وآطام.

فلم يكن لعرب يثرب ما لقريش مما جعلها تأبى تلك الدعوة، بل كانت مجاورتهم لليهود تجعلهم أقرب إليها من غيرهم من العرب، لأنهم كانوا يسمعون منهم أحاديث عن نبي يبعث في آخر الزمان، فينصر دين الله على سائر الأديان، ويبطل عبادة الأصنام والأوثان.

وكان أولئك النفر ستة رجال، وكانوا كلهم من الخزرج، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، فقال بعضهم لبعض: إنه للنبي الذي كان تعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. ثم أجابوه إلى الإسلام، وقالوا له: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم وعدوه أن يقابلوه في الموسم المقبل.

فلما كان الموسم المقبل قدم منهم إلى مكة اثنا عشر رجلا: عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة، وقد عرض عليهم الإسلام فأسلموا، ثم بايعوه على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب.

فبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، فإن وفوا فلهم الجنة، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب.

وهذه مبايعة دينية محضة، وقد اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم عليها، ولم يطلب منهم مبايعة سياسية يتعاونون فيها على حماية دعوته،

لأنهم كانوا عدداً قليلا لا يكفي لهذه الحماية، ولم يكن الإسلام قد شاع بين قومهم حتى يطلب هذا منهم.

وهذه البيعة تسمى بيعة العقبة الأولى، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم، ليدعوا قومهم إلى الإسلام، ويعلماهم القرآن، ويفقهاهم في الدين، فقاما بنشر الإسلام بين أهل يثرب، حتى دخل فيه كثير منهم، وصار له شأن كبير بينهم.

(٩) محالفة أهل يثرب

لما كان الموسم الذي يلي بيعة العقبة السابقة قدم جمع كثير من أهل يثرب إلى مكة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، فتواعدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم أن يوافوه بالعقبة ليلة النفر الأول، وقد أمرهم ألا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً، وكان معهم مشركون من قومهم فأخفوا هذا عنهم.

فلما كان الموعد خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلي وعمه العباس وهو على شركه، فأوقف العباس علياً على فم الشعب عيناً له، وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عيناً، ثم سار مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم، فقال: يا معشر الخزرج– وكان يطلق على ما يشمل الأوس– إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن

كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن تدعونه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

ثم قال العباس بن عبادة من أهل يثرب، فقال لقومه: هل تدورن علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

فقال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةٌ وأشرافكم قتلٌ أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة؛ وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف.

ثم توجهوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

قال: الجنة.

فقالوا: أبسط يدك.

فبسط يده فبايعوه.

فلما قام يبايعهم تكلم فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، وفي رواية أنه قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم. وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

فقام البراء بن معرور فأخذ بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أُزُرنا[1] فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحلقة[2] ورثناها كابراً عن كابر.

ثم تتابع القوم بعد البراء، فعقدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية، ثم قالوا: يا رسول الله، إنما براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا. نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

ثم قام أبو الهيثم بن السيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا– يعني اليهود– وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

---

(1) نساءنا، لأن المرأة يكنى عنها بالإزار.

(2) السلاح.

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم[1] أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وكانت هذه البيعة في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وهي تشتمل على معاهدة دفاعية من أهل يثرب، ودفاعية هجومية من جانب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قريش، لأن أهل يثرب لم يتعهدوا في بيعتهم إلا بالدفاع عنه، فإذا هاجم أعداءهم لم يلزمهم أن يشاركوه في هجومه، أما هو فقد ذكر أنه يحارب من حاربوه ويسالم من سالموه، فيشاركهم في هجومهم ودفاعهم، وقد أعطاهم بهذا أكثر مما أخذ منهم، وهي سياسة نبيلة قابل بها ما أبدوه من التحمس في الدفاع عنه، وسيكون لها أثرها في نفوسهم بعد هجرته إليهم.

فلما فرغوا من البيعة قال لهم: ارفضوا إلى رحالكم. فقال له العباس بن عبادة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

وقد بلغ خبر هذه البيعة قريشاً، فجاءوا إلى أهل يثرب فقالوا لهم: بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجوه من أرضنا، وتبايعوه على حربنا. فأنكروا ذلك، لأنهم لم يبايعوه على حربهم، وإنما بايعوه على الدفاع عنه، ولكنهم لم يخبروهم بذلك، وإنما أنكروا ما نسبوه إليهم. وصار بعض

---

(1) إهدار الدماء.

المشركين من أهل يثرب يحلفون لهم أنه لم يحصل من قومهم مبايعة له في ليلتهم، لأن من حضرها من مسلمي قومهم أخفاها عنهم.

(١٠) الهجرة إلى المدينة

أخذت قريش تبحث عن خبر هذه المبايعة حتى عرفت صدقه، وكان هذا بعد أن خرج أهل يثرب إلى بلدهم، فاقتفوا آثارهم فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأما سعد فأمسك وعذّب، وأما المنذر فأفلت، ثم أنقذ الله سعداً من أيدي المشركين إذ رآه أبو البختري يعذب فقال له: ويحك ما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد. فقال: بلى كنت أجير لجبير بن مطعم تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلدي، وللحارث بن حرب بن أمية. فقال له: ويحك فاهتف باسم الرجلين. ففعل، فخرج أبو البختري إليهما فوجدهما في المسجد، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمكما. فقالا: من هو؟ قال. يقول إنه سعد ابن عبادة. فجاء إليه فخلصاه من أيديهم.

وقد اشتدت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين بلغها أمر هذه المبايعة، ونالت منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، ومعذب في أيدي المشركين، وهارب في البلاد.

فشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فيا لهجرة، فمكث أياماً لا يأذن لهم، ثم خرج إليهم في يوم مسروراً فقال لهم: قد

أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب. وقد سميت بعد الهجرة إليها باسم المدينة، وهو الاسم الذي غلب عليها بعد الإسلام.

(١١) الائتمار بالنبي عليه السلام

فلما رأت قريش الجد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم، علمت أنه لابد مهاجر إلى المدينة، وهي في طريق تجارتها إلى الشام، فإذا هاجر لم يقتصر خطره على دينها وحده، بل يجاوزه إلى تجارتها التي تعتمد عليها في حياتها، فاجتمع رؤساؤها في دار الندوة، وهي دار قُصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، فتشاوروا ما يصنعون في أمر النبي صلى الله عليه وسلم؟

فقال قائل منهم: تخرجه من أرضنا كي نستريح منه.

فرفضوا هذا الرأي، لأنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع، لما يرونه من حلاوة منطقه، وعذوبة لفظه.

وقال قائل منهم: نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت.

فرفضوا هذا الرأي أيضاً، لأنهم إذا حبسوه أتى أنصاره فخلصوه، لأنهم يفضلونه على الآباء والأبناء، وربما جر هذا من الحرب عليهم ما هم في غنى عنه.

وقال قائل منهم: بل نقتله، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بثأره نأخذ من كل قبيلة شاباً جلدا يجتمعون أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد،

فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، بل يرضون بالدية.

فأقروا على هذا الرأي، واتفقوا على ليلة يقومون بقتله فيها على هذا الشكل، ويتخلصون من أمره بقتله.

ولكن الله أعلمه بما دبروا من ذلك، فهاجر في الليلة التي أرادوا قتله فيها، وأمر علي بن أبي طالب فنام على فراشة، ليوهمهم أنه نائم فيه، ويكون قد فاتهم إذا طلبوه، فتمت الحيلة عليهم، وباتوا يرددون النظر في شقوق الباب، فلما علموا أن النائم علي لا محمد سُقط في أيديهم، وخرجوا يطلبونه فلم يمكنهم اللحوق به، وكان قد هاجر هو وأبو بكر، فسارا حتى وصلا المدينة، وقد استقر أمره فيها، وتبدل حاله عما كان عليه بمكة، وكان هذا بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته.

السياسة الخارجية قبل الهجرة

(١) بين المسلمين وقريش

سلكت قريش هذه الفترة سياسة الخصام للدعوة الإسلامية، ولكن الله فرق بينها في هذه السياسة، وأوقع العصبية بينها فيها، فقام منها بنو عبد مناف يخالفونها في إيقاع الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن منهم، فاقتصرت كل قبيلة منها على إيقاع الأذى بمن أسلم من أبنائها، ولم تجعلها حرباً عامة للدعوة الإسلامية.

ولم ير بنو عبد مناف حرجاً في حمايتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع تمسكهم بشركهم، كما لم ير بعض أشراف قريش حرجاً عليهم في بعض مواقف خففوا فيها من خصام قومهم، ومنعوا بعض أذاهم للمسلمين، وغلبت فيها عاطفة الرحم على عاطفتهم الدينية، لأنهم كانوا يرون أن الناس أحرار في دينهم، وكل إنسان له دينه وعقيدته، وليس على غيره شيء مما يدين به.

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم سياسة السلم مع قريش في هذه الفترة، فلم يقابل الشر بمثله، بل تحمل هو وأتباعه أذى قريش، وصبروا على هذا صبراً جميلاً، لأن الإسلام يعتمد في دعوته على السلم، ولا يعتمد فيها على القوة، بل يأخذ الناس إليها بالإقناع، ويهديهم إليها

بالدليل، لأن القوة لا تربي عقيدة في النفس، والإسلام يريدها عقيدة يوافق باطنها ظاهرها، ولا يريدها رياء مخادعاً، ونفاقاً مخاتلا.

وقد أباح الإسلام استعمال القوة في الدفاع عن دعوته، ولكن المسلمين كانوا في هذه الفترة ضعافاً لا يمكنهم أن يقابلوا الشر بمثله، بل كان هذا يضرهم ولا ينفعهم. ويجعل قريشاً تطغى في آذهم، فكان من حسن السياسة في هذه الفترة أن يصبروا على ذلك الأذى، ويقابلوا السيئة بالحسنة، وضبط النفس، وكظم الغيظ، وقد أخذ المسلمون بهذه السياسة اللينة في كرامة نفس، ونبل خلق، فكانوا كراماً في ضعفهم، أعزاء في قلة عددهم.

وقد فشلت سياسة قريش في هذه الفترة، فلم يمكنها القضاء على هذه الدعوة، ولكنها وقفت بها عند حد محدود، فلم يؤمن إلا عدد قليل من أهل مكة، لأن الدعوة لابد لها من حماية تدفع كل أذى عنها؛ وقد كانت حماية بني عبد مناف لها حماية عصبية لا دينية، فكانت تقتصر على النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن به من بني عبد مناف، وكانت تدافع عنهم في حدود هذه العصبية ولا يهمها شيء من أمر الدعوة التي يقومون بها، ومثل هذه الحماية لا يمكن أن تنهض بها دعوة، أو تصل إلى ما تريد من الذيوع بين الناس.

(٢) بين المسلمين والحبشة

كان على الحبشة في هذه الفترة ملك عادل يقال له أصحمة، وهو في العربية بمعنى عطية، وكان محبوباً من رعيته، لأنه تولى عليهم وكان أمرهم مضطرباً. وحالهم مختلا، فأصلح ما اضطرب من أمورهم، وحكم بينهم بالعدل، فأحبوه وأخلصوا في طاعته، وكانوا يدينون بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام مما كان عليه قريش من عبادة الأصنام.

فلما اشتد أذى قريش على المسلمين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى هذا الملك العادل، فهاجر إليه كثير منهم، فأكرم وفادتهم، وأحسن جوارهم، وبدل خوفهم أمناً، وضيقهم سعة، وشقاءهم سعادة، وقد عرف ما لقوه من عباد الأصنام، فآلمه ما لقوه منهم، لأن النصرانية ترفض عبادة الأصنام مثلهم.

وقد غاظ قريشاً ما لقي المسلمون في الحبشة من حسن الجوار فأرسلت إلى النجاشي رحلين من أبرع رجالها في السياسة والدهاء وهما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، ليعملا على إفساد ذلك الملك على من لجأ إليه من المسلمين، وقد أرسلت إليه معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا بطريقاً من بطارقته إلا أهدوا له هدية[1] ثم قالوا

---

(1) البطارقة الوزراء.

لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم[1] ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرج عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من مكة إلى الحبشة، فلم يتركا بطريقا عن البطارقة إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلما الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقال البطارقة لهما: نعم.

ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له مثل ما قالا لبطارقته، وكانوا حاضرين في مجلسه، فقالوا: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي غضباً شديداً، ثم قال لهم: لا والله لا أكيد قوماً جاوروني واختاروني على من سواي، حتى أعلم على أي شيء هم.

---

(1) النجاشي لقب لكل من ملك الحبشة.

ثم أرسل إليهم من يأتي بهم، فلما جاءهم الرسول اجتمعوا وقال بعضهم لبعض: ما الذي تقولون للملك؟ فقال جعفر بن أبي طالب: أنا خطيبكم اليوم، ولا نقول إلا ما علمناه، ويكون في ذلك ما يكون.

وكان الملك قد دعا أساقفته قبل أن يأتوا إليه[1] ليسمعوا ما يجرى بينه وبينهم في أمر دينهم، فنشروا مصاحفهم وأناجيلهم، فلما أتى جعفر وإخوانه من المسلمين قال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟.

فقام جعفر فقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

---

[1] الأساقفة جمع أسقف، وهو العالم في النصرانية.

فقال النجاشي لجعفر: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال جعفر: نعم.

فقال النجاشي: فاقرأه علي.

فقرأ جعفر صدراً من سورة (كهيعص) وفيه قصة زكريا ومريم، فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[1] ثم قال لعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادُون.

فخرج عمرو هو وصاحبه، وعمرو لا يغلب بمثل هذه السهولة، فقال لصاحبه: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله وكان أتقى منه فيهم: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا. فقال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

ثم غدا عمرو على الملك من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

([1]) المشكاة الثقب الذي يوضع فيه الفتيل والمصباح.

فأرسل النجاشي إلى جعفر وإخوانه، ليسألهم عما يقولون في عيسى بن مريم، فلم ينزل بهم مثلها قط، وقد اجتمعوا يتشاورون ما يقولون فيه إذا سألهم عنه، فأجمعوا أن يقولوا ما قال الله فيه كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا على النجاشي قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فلما سمع النجاشي هذا منه ضرب بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، اذهبوا فأنتم سيوم[١] من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً[٢] من ذهب وأني آذيت رجلا منكم.

ثم أمر أن ترد هداياه إلى عمرو وعبد الله، وأخبرهما بأنه لا حاجة له بها، فرجعا بها إلى قومهما. ولم ينالا ما أرادا من مهاجري الحبشة.

ولكن بطارقة النجاشي لم يوافقوه على ما فعل معهما بعد رجوعهما، ورأوا فيما أجاب به جعفر عن عيسى بن مريم غير رأيه، فأذاعوا بين أهل الحبشة أنه قد خرج عن النصرانية، فاجتمع أهلها عنده

---

(١) آمنون بلغة الحبشة.

(٢) جبلا.

وقالوا له: إنك قد فارقت ديننا. ثم خرجوا عليه، وأقاموا ثورة منكرة في بلاد الحبشة.

فأرسل النجاشي إلى جعفر وإخوانه، وهيأ لهم سفناً، ثم قال لهم فيما بينهم وبينه: اركبوا في هذه السفن، وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عمد النجاشي إلى صحيفة فكتب فيها أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم. ثم جعل هذه الصحيفة في قبائه عند منكبه الأيمن، وأخفاها عن قومه، ثم خرج إليهم وقال لهم: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟

قالوا: نعم.

فقال لهم: فكيف رأيتم سيرتي؟

قالوا: خير سيرة.

فقال لهم: فما بالكم؟

قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد.

فقال لهم: فما تقولون أنتم في عيسى؟

قالوا: نقول هو ابن الله.

فقال لهم– وقد وضع يده على موضع الصحيفة–: إنه يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً. وإنما يشير إلى ما في الصحيفة، وهم لا يعلمون شيئاً من أمرها.

فرضوا بقوله: ورجعوا عن ثورتهم، فرجع جعفر وإخوانه إلى ما كانوا عليه، وتساهل القوم في أمرهم، فأقاموا بالحبشة آمنين مطمئنين، ورضوا بعيشتهم فيها ونغموا بها، وقالوا في ذلك شعراً كثيراً، فمنه قول عبد الله بن الحارث السهمي:

يا راكبا بلغن عني مغلغلة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين[1]

كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون

إنا وجدنا بلاد الله واسعةً ... تنجي من الذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ي في الممات وعيب غير مأمون

إنا تبعنا رسول الله واطرحوا ... قول النبي وعالوا في الموازين

فاجعل عذابك في القوم الذين بغوا ... وعائذ بك أن يعلوا فيطغوني

وكانت الحبشة بهذا أول من مدّ يده من الأمم إلى مصافاة المسلمين، ففتحت بلادها لهم، ولم تسمع لقريش في مخاصمتهم، ورضيت منهم ما يشاركونها فيه من رفض عبادة الأصنام، ولم يسمح لها دينها أن تسلم فيهم لم يعبدها من أعدائهم.

---

(1) المغلغلة الرسالة ترسل من بلد إلى بلد.

وقد كان الإسلام لا يزال ديناً ناشئاً، ولم تكن السياسة قد أفسدت فيما بينه وبين أهل النصرانية، فأكرم نصارى الحبشة أهله في هذه الفترة، وآثروا مصافاة أهله على مصافاة أعدائهم من مشركي قريش، كما آثر الإسلام في هذه الفترة مصافاة النصرانية أيضاً، لا في الحبشة وحدها، بل في سائر بلادها، فحزن المسلمون فيها حين انتصر الُرس على الروم في الشام، لأن الروم أهل كتاب مثلهم، وقد نزل في هذا قوله تعالى في أول سورة الروم (ألم، غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم).

أما الفرس فكانوا مجوسا لهم إلهان اثنان: إله الخير وإله الشر، وهذا يجعلهم أقرب إلى الشرك من التوحيد، وكانوا يعبدون النار ويتخذون لها بيوتاً مقدسة، وهذا أقرب إلى عبادة الأصنام، ولا شك أنهم كانوا بهذا أقرب إلى قريش من شركها وتعدد آلهتها من أصنام وغيرها، ولهذا فرحت لنصرهم على الروم، وهذا إلى أن أكاسرة الفُرس كانوا مع هذا يجعلون من أنفسهم آلهة على رعاياهم، فكانوا من بقايا الجبابرة الأولين مثل الفراعنة والنماردة، ولم يبلغ قياصرة الروم هذا المبلغ في تجبرهم على رعاياهم، وبهذا وذاك كانوا أحق من الفرس بميل المسلمين إليهم.

السياسة الداخلية والخارجية من الهجرة إلى غزوة بدر

السياسة الداخلية من الهجرة إلى غزوة بدر

(١) بين المهاجرين والأنصار

يطلق اسم المهاجرين على الأصحاب الذين هاجروا إلى المدينة قبل فتح مكة، ويطلق اسم الأنصار على الأوس والخزرج من أهل المدينة، لما كان من نصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد اختير هذا الاسم لهم بعد الإسلام ليجمع بينهم، ويقضي على ما كان بينهم من عداء في جاهليتهم.

وقد مضى المهاجرون والأنصار في هذه الفترة على المعاهدة التي عقدوها في بيعة العقبة الثانية، وكانت توجب على الأنصار الدفاع عن المهاجرين، ولا توجب عليهم أن يشاركوهم في الهجوم على قومهم. وقد وَفى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشرط في هذه الفترة، فلم يشركهم فيما قام به المهاجرون من الهجوم على قوافل قريش، وتركهم على ذلك إلى غزة بدر، وكانت في السنة الثانية من الهجرة، حتى يتمكن الإسلام من قلوبهم، ويتم الاتحاد والامتزاج بينهم وبين المهاجرين، وتتهيأ نفوسهم لمشاركتهم في الهجوم على أعدائهم.

وقد كان للأوس والخزرج في جاهليتهم أنظمة خاصة بهم، وإمارات تقوم بتدبير شؤونهم، وقد دخل الإسلام عليهم وهم ينظمون الحرز ليتوجوا عليهم عبد الله بن أبي بن سلول، فأبطل ما كانوا يريدونه من

ذلك، لأن أمورهم صارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأنظمتهم صارت خاضعة لأنظمة الإسلام، فتغيرت نفوس بعضهم، ودخلها شيء من الريبة والحسد، فكان من الحكمة في السياسة أن يكتفي بما بذلوه من أنفسهم في معاهدة العقبة، وألا يكلفوا بأكثر منه حتى تستقر أمورهم، وتألف هذا النظام الجديد نفوسهم.

وكان مما عمله النبي صلى الله عليه وسلم في تهيئتهم لذلك أن آخى بينهم وبين المهاجرين، فآخى بينهم في الله أقوى أخُوة، وربط بينهم في الدين أقوى رابطة، لينسوا بهذا قرابة من تخلف منهم، ويؤثروا أخوة المهاجرين على قرابتهم، فآخى بين أبي بكر وخارجة ابن زيد، وآخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وآخى بين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وآخى بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع، وآخى بن الزبير بن العوام وسلامة ابن سلامة، وآخى بن عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وآخى بين طلحة بين عبيد الله وكعب بن مالك، وآخى بين سعيد بن زيد وأبي بن كعب، وآخى بين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وآخى بين أبي حذيفة بن عتبة وعبَّاد بن بشر، وآخى بين عمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان، وآخى بين أبي ذر والمنذر بن عمرو، وآخى بن حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وآخى بن بلال بن رباح وأبي رويحة.

وهكذا آخى بين سائر المهاجرين والأنصار، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة أقوى من أخوة النسب، وكانت أخوة على

المواساة والحق، وإيثار رابطة الإسلام على غيرها من الروابط، فقطعت رابطة الأنصار بمن بقي منهم على الشرك، ونسوا بها ماضيهم في الفرقة والانقسام، ولم ينظروا إلا إلى حاضرهم في ذلك الإخاء الصادق، وتلك الرابطة الكريمة.

وقد بلغ من أمر هذه الأخوة أنهم كانوا يتوارثون بها بعد الموت، ولم يكن لرابطة القرابة معها حظ من الإرث، وقد مكثوا يتوارثون بها إلى أن نزلت الآية الأخيرة من سورة الأنفال (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليمٌ).

(٢) بين المسلمين واليهود

نزل كثير من اليهود بيثرب وما حوليها بعد أن أجلاهم الروم من بلادهم بفلسطين، فاتخذوا منها وطنا لهم بين أهلها من العرب، واتخذوا التجارة والصناعة والزراعة حرفة لهم، حتى ظهروا على العرب بأموالهم، ثم عاملوهم بالربا الفاحش حتى ابتزوا كثيراً من أرضهم، فصارت لهم بهذه البلاد قوة ومنعة، وصارت لهم بها حصون وآطام كثيرة، وصارت لهم بها قبائل وافرة العدد، كبني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة.

ولما طال العهد عليهم في هذه البلاد انغمسوا في جاهليتها، واشتركوا في حروبها، وانقسموا على أنفسهم فيها، فقد كان بين الأوس والخزرج حروب في جاهليتهم، فدخل بنو قريظة في حلف الأوس،

ودخل بنو النضير وبنو قينقاع في حلف الخزرج، وقاتل اليهود بعضهم بعضاً في هذه الحروب، ونسوا ما بينهم من رابطة الدين، وما أخذ عليهم فيها من عهود ومواثيق، إلا قليلاً منها كانوا يأخذون به، ومن ذلك أنهم كانوا إذا أسر رجل من فريقي اليهود في قتالهم يجمعون له ما يفدونه به. فإذا عابت العرب ذلك عليهم وقالت لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم؟ قالوا لهم: إنا أمرنا أن نفديهم. فإذا قالت العرب لهم: كيف تقاتلونهم؟ يقولون. إن نستحي أن نذل حلفاءنا. وقد أشار القرآن الكريم إلى ما وقعوا فيه من تلك الآثام في الآيتين– ٨٤، ٨٥– من سورة البقرة (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرمٌ عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون).

ولكن اليهود مع هذا لم يكونوا يخلصون للعرب في معاملاتهم، ولم ينسهم ما لقوه من حسن الجوار في وطنهم جشعهم وحرصهم، ولم يخلع من نفوسهم أنهم شعب الله المختار، وأنه لا حرج عليهم في غيرهم من الشعوب، فكانوا يرون أنهم لا حرج عليهم في أمر مواطنيهم من العرب، وأنه لا شيء عليهم في أكل أموالهم، وقد أشار القرآن إلى هذا في الآية– ٧٥ من سورة آل عمران (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت

عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) فأهل الكتاب هم اليهود، والأميون هم العرب، وكان ممولوا اليهود يقرضونهم بالربا الفاحش، ويستحلون أكل أموالهم.

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أراد أن يجعل منها وطناً واحداً للعرب واليهود، وأن يجعل من الفريقين أمة واحدة تجمعها جامعة الوطن، ولا يفرق بينها اختلافها في الدين، فيزول ما كان بينها من شرور وآثام، وتبطل حروبهم ومنازعاتهم، ويرفرف علم الإخاء بينهم جميعاً، فلا ينظر العرب إلا إلى هذا الوطن، وينسون فيه أنهم عرب، ولا ينظر اليهود إلا إلى هذا الوطن، وينسون فيه أنهم يهود، وكذلك ينظر كل قبيل من العرب كالمهاجرين والأوس والخزرج، وكل قبيل من اليهود كبني النضير وبني قينقاع وبني قريظة، ولا شك أنه بهذا يكون الإسلام أول من أتى بهذا الأصل العظيم– الدين لله، والوطن للناس.

فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ما كان بين أهل المدينة قبل الإسلام من المعاهدات المفرقة الظالمة، وعقد بينهم معاهدة تحقق تلك الأغراض التي أرادها لهم، وتجعلهم أمة واحدة على أعدائهم، وكتب بها كتابا بين المهاجرين والأنصار واليهود، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وهو هذا الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاملون بينهم[1] وهم يفدون عانيهم بالمعروف

(1) أي على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء.

والقسط بين المؤمنين[1] وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى[2] وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين- ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بني الحارث وبني ساعدة وبني جُشم وبني النجار وبني عمر بن عوف وبني النبيت- إلى أن قال: وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً[3] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم[4] أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر[5] ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس[6]، وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة[7] غير مظلومين ولا متناصرٍ عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبئ[8] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل

---

(1) العاني الأسير.

(2) المعاقل الديات.

(3) مثقلا بالدين والعيال.

(4) الدسيعة العطية.

(5) يريد به المشرك المقاتل.

(6) يريد بهم المعادين لهم.

(7) المساواة في المعاملة.

(8) يعني أن بعضهم أولياء بعض في ذلك.

الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط[1] مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المفتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه[2] وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله ورسوله، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[3] إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جُشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد- صلى الله عليه وسلم- وإنه لا يتحجر على ثأر جرح[4] وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبرِّ هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون

([1]) اعتبطه قتله من غير شيء يوجب قتله.

([2]) المحدث الجاني.

([3]) لا يهلك.

([4]) أي لا يلتئم جرح على ثأر.

الإثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفُها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضارَّ ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مره إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه؛ وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبرِّه، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن. ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله– صلى الله عليه وسلم.

ولقد فتحت هذه المعاهدة فتحاً جديداً في السياسة الدينية، فأقرت حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة الوطن، وحرمة الحياة، وحرية النفس، وحرمة المال، ولم يحدث مثل هذا قبلها فيما بين أهل الأديان، بل كان هناك الاضطهاد والظلم، والتفرقة في الحقوق، والتفاوت بين الأفراد والطبقات.

فهل أخلص اليهود لهذه المعاهدة العادلة؟ كلا، بل أبرموها ليخدعوا المسلمين، ويدبروا في السر ما يفسدون به أمرهم، وقد عاشوا بين العرب في الجاهلية ما عاشوا بينهم، ولقوا من حسن جوارهم ما لم يلقوه من سواهم، فلم ينسهم هذا أنهم يهود وهم عرب، وأنه لا سبيل عليهم فيهم، فكيف يخلصون لهم وقد صاروا إلى دين جديد ينهض بهم؟ ويضيع عليهم ما كانوا يربحونه من غفلتهم، وكيف يسمون إلى هذه السياسة التي تسمو على الفوارق الجنسية؟ وهم لا يعرفون إلا جنسهم ودينهم وما عداهما لا قيمة له عندهم، ولا يصح أن يتساوى وإياهم؟ وقد جبلوا من الجشع، وخلقوا من الطمع، فلا يهمهم إلا أمر المادة، ولا يهمهم أمر الروح وفضائلها.

فأخذ اليهود يجتهدون في إفساد ما بين مسلمي أهل المدينة، ليفرقوا كلمتهم، ويعودوا إلى ما كانوا عليه في جاهليتهم، يعبدون الأصنام، ويحارب بعضهم بعضاً، وعبادة الأصنام أهون عند أولئك اليهود الجشعين من أن يشاركهم أبناء هذا الوطن في خيراته، لأنهم لا يهمهم أمر الدين بقدر ما يهمهم أمر المال، وتاريخهم ينطق بأنهم يريدون أن يختصوا بدين التوحيد، فلا يهمهم أمر عبادة الأصنام من غيرهم.

وقد مرَّ شاس بن قيس اليهودي على نفر من الأوس والخزرج بعد إسلامهم، وقد جمعهم مجلس واحد يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم

من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ قيلة بهذه البلاد[1] لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار. فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله[2] وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. ففعل الفتى ما أمره به شاس، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى ثوابت رجلان من الحيين على الرُّكب (أوس بن قيظي الأوسي وجبار بن صخر الخزرجي) فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا موعدكم الظاهرة[3] السلاح السلاح. ثم خرجوا إلى تلك الحرة.

فبلغ النبي صلى الله عليه سلم ما فعلوه، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فلما وصل إليهم قال لهم: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع النبي صلى الله

---

(1) قيلة أم الأوس والخزرج.

(2) يوم بعاث من أيام الحروب بين الأوس والخزرج.

(3) حرة بالمدينة.

عليه وسلم سامعين مطيعين، وغلبت سياسة الألفة سياسة التفريق التي لجأ إليها اليهود.

وحينئذ أدرك اليهود أن سياسة الإسلام أقوى من سياستهم، وأن رابطته أقوى من أن يؤثر فيها مثل ما لجأ إليه شاس بن قيس، فعمدوا إلى وسيلة أخرى يصلون بها إلى غايتهم، وهي تشكيك المسلمين في دينهم، فكانوا يتعنتون النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال ويأتونه باللبس، ليُلبسوا الحق بالباطل، ويوقعوا في نفوس المسلمين الشك في أمره، وممن كان يفعل هذا من رؤسائهم حُي ابن أخطب من بني النضير، وعبد الله بن صوري من بني ثعلبة، وزيد بن اللصيت من بني قينقاع، والزبير بن باطا من بني قريظة، ولبيد بن أعصم من بني زُريق، وكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه.

ومن ذلك أن بعضهم قال: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً، وقد أنزل الله في قولهم هذا (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية– ١٠٢– من سورة البقرة.

ومن ذلك أنه لما صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة أتى رفاعة بن قيس وغيره من أحبار اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك. وكانوا يريدون بهذا فتنة المسلمين، لأنهم لم يؤمنوا به حين كانوا يتجه إلى بيت المقدس، فأنزل

الله تعالى فيهم (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) الآيات ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧- من سورة البقرة.

ومن ذلك أن ابن صلوبا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه. وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله (ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيناتٍ وما يكفر بها إلا الفاسقون) الآية- ٩٩- من سورة البقرة.

ومن ذلك أن ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم ضلت، فقال زيد ابن اللصيت: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن قائلا قال: أيزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدر أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، فهي في هذا الشِّعب قد حبستها شجرة بزمامها. فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكما وصف.

وقد أنزل الله تعالى فيما كان من اليهود والمنافقين من ذلك وغيره، صدر سورة البقرة إلى المائة منها، فذكر فيها ما كان من محاولتهم دفع الناس عنه بالباطل وذكرهم بنعم الله عليهم وتفضيله لهم على العالمين، وذكر ما كان منهم بعد هذا من الكفر بنعمته، وتحريف دينه، وانغماسهم في تلك الجاهلية الآثمة، حتى إنه لم يبق لهم من دينهم إلا اسمه، وإلا أماني باطلة لا أساس لها، فكال لهم الصاع صاعين، ودفع باطلهم بالحق

الذي لا شك فيه، وذكر كثيراً من سوأتهم في قديمهم وحديثهم، وللحق صولته التي لا تدفع، وسلاحه الذي لا يقاوم، فرد بهذا كيدهم في نحورهم، وجعلهم يرتمون في أحضان من بقى على شركه من أهل المدينة، وكان أكثرهم منافقين لا يظهرون بشركهم، فاتفقوا هم واليهود على أن يبقوا في السر على ما كان بينهم من حلف قبل الإسلام، ولا يخلصوا لذلك الحلف الجديد الذي عقدوه هم والمسلمون.

وقد جنى اليهود بذلك على أنفسهم، وساروا بها في طريق سينتهي بهم إلى النفي من ذلك الوطن الذي لم يعرفوا حقه عليهم، ولم يقدروا فيه تلك السياسة الكريمة التي تسوي بينهم وبين أبنائه، مع أنهم غرباء فيه وليس لهم فيه من الحق مثل ما لأهله.

وكانت سورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة، فهي تحكي حال اليهود في تلك الفترة، وتصور تعنتهم على أهل ذلك الوطن تصويراً لا شك فيه.

وقد اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة برد كيد أولئك اليهود، وإفساد محاولاتهم التفريق بين المسلمين وتشكيكهم في دين الإسلام، وقد جرى في هذا على السياسة التي استنها في مطاولة أعدائه إلى أن ينقطع عذرهم، ولا يكون هناك شيء في أخذهم بالحزم والشدة، ويكونوا هم الذين جنوا على أنفسهم.

(٣) بين المسلمين والمنافقين

المنافقون قوم من الأوس والخزرج أخفوا الكفر وأظهروا الإسلام، وكان بينهم قليل من اليهود، ورئيسهم جميعا عبد الله بن أبي بن سلول من بني عوف، ثم أحد بني الحُبلى، وكان سيد أهل المدينة، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، وقد جاءهم الإسلام وهم على هذا، فانصرفوا عنه، وتركوا التفكير فيه، لأن أمورهم صارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فضغن عبد الله بن أبي هذا على الإسلام، ورأى أنه قد استلبه ملكا. وانضم إليه قوم من الأوس والخزرج، ممن كان عسا على جاهليته[١] ولكنهم رأوا أن يظهروا الإسلام مجاراة لجمهور قومهم، وليمكنهم أن يسعوا بالفساد بينهم في أمان منهم، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، وما إلى هذا من كفرهم.

وقد ذكر ابن إسحاق أنهم اتخذوا إسلامهم جُنَّة من القتل، وهذا خطأ ظاهر، لأن الأوس والخزرج أسلموا طائعين، ولم يقهرهم أحد على الإسلام. ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وهو لاجئ إلى حمايتهم في حال تمكنه من قهرهم على الإيمان به، على أن الإسلام كما سبق لا يقبل وسيلة القهر في الدعوة، لأن الإيمان الذي يحصل بالقهر لا يقبل

---

(١) عسا على جاهليته بقى عليها واشتد في الأخذ بها.

من صاحبه، وإنما يقبل منه الإيمان الصادق، والاعتقاد الصحيح، على أنا إذا رجعنا إلى المعاهدة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بين أهل المدينة نجد فيها هذا النص (وإنه لا يجيز مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن) وهذا صريح في أنها كانت تشمل من بقى ظاهراً على شركه من أهل المدينة، وفي أنها كانت تعترف بوجودهم فيها، وبأن لهم ما للمسلمين واليهود من أهلها، وبأن عليهم ما عليهم، فلم يكن هناك قهر على الإسلام، ولم يكن هناك ما يحمل على النفاق من خوف القتل.

وإنما النفاق طبيعة في بعض بني الإنسان، يحملهم عليه ضعف النفس، والاستهتار بشأن الدين، كما حكى الله تعالى عنهم في الآية-١٤- من سورة البقرة (وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون).

وقد أخذهم النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً بما جرى عليه في سياسته؛ من مطاولة خصومه، والصبر على خصومتهم إلى أن يقطع عذرهم، وهم يزيدون عن غيرهم بقرابتهم لمن أخلص في إسلامه من الأوس والخزرج، فراعى فيهم تلك القرابة، وراعى فيهم من آواه وأكرمه من أهلهم، وإنه لمن حسن السياسة وكمال المروءة أن يحتمل من أجلهم نفاق أقربائهم، وأن يقابل ضعف النفاق بالاحتقار والازدراء، لأنه من الهوان بحيث لا يستحق أن يهتم به، أو يقابل بأكثر من الاحتياط في

أمره، والتيقظ لما يدبره في السر، حتى لا يؤخذ المسلمون بما يدبره من المفاسد.

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم يوما أن يعود سعد بن عبادة من شكو أصابه، فركب على حمار عليه إكاف[1] فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف، فمر بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطُمِه مزاحم[2] وحوله رجال من قومه، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم ثم جلس قليلا ودعا إلى الله عز وجل وذكر به وحذر وبشر وأنذر، وعبد الله زامٌّ لا يتكلم[3] فلما فرغ من مقالته قال: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقا فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه.

فرد عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عند عبد الله بن أبي من المسلمين ما سمعوه منه، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: بلى فاغشنا به، وائتنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا له.

فقال عبد الله بن أبي حين ردوا عليه:

---

(1) بردغة.

(2) الأطم الحصن، ومزاحم اسم أطم عبد الله.

(3) إلزام الساكت.

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع

قام النبي صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عبد الله بين أبي، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه. فقال له: أجل. ثم أخبره بما قال عبد الله بن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإننا لننظم له الخرز لنتوجه، وإنه ليرى أن قد سلبته ملكا.

وهذا الخبر قاطع في أن عبد الله بن أبي وإخوانه من المنافقين لم يكونوا يخافون القتل، وإنما كانوا يتجنون على النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يطاولهم ويصبر عليهم ويرفق بهم، ولكنه كان يذم النفاق والمنافقين من غير أن يصرح بأسمائهم، وقد ورد في سورة البقرة آيات كثيرة في ذمهم، وقد سبق أن سورة البقرة نزلت في تلك الفترة.

فكان موقف المنافقين من المسلمين من تلك الفترة مثل موقف اليهود منهم، فلم يخلص الفريقان للمعاهدة الجديدة التي عقدها المسلمون معهم، بل أخلصوا لمعاهداتهم القديمة، وكانوا في سرهم مع قريش على المسلمين، يتجسسون لقريش عليهم، ويطلعونها على أخبارهم، ويتمنون نصرها عليهم، ويضمرون لهم من الحقد ما يضمرون، ويكنُّون لهم من البغض ما يكنون، ويعملون في الخفاء ما لا تعمله قريش في الجهر.

ولهذا كان ضررهم على الإسلام أشد من ضرر قريش، لأن عداوة قريش كانت عداوة ظاهرة يعرف ماتأها، ويمكن اتقاؤها، وعداوة هؤلاء كانت عداوة خفية توقع في العنت والحرج، وتتطلب سياسة حكيمة يقظة تتغلب عليها بالحكمة واليقظة، وتفسد محاولاتها الخفية أولا بأول، حتى ترد كيدها في نحرها، وتورطها في آثامها إلى أن تجاوز الحد، فتؤخر بشر ما جنت، وينقلب كيدها وبالا عليها.

السياسة الخارجية من الهجرة إلى غزوة بدر

(١) بين المسلمين وقريش

مكث النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة يقابل عداء قريش بالصفح، وكان أصحابه يأتونه بمكة ما بين مضروب ومشجوج، فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أومر بقتالهم، وقال له جماعة من أصحابه، منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون وسعد بن أبي وقاص: يا رسول الله، كما في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فائذن لنا في قتال هؤلاء. فقال لهم: كفوا أيديكم عنهم. فإني لم أومر بقتالهم.

فلما هاجر من بلدهم إلى المدينة تابعوه العداء، فبعثوا إلى أهل المدينة يهددونهم بالحرب إن لم يخرجوه من بلدهم، وقد أرسلوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأمجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً أرسلت إليه هذا ذهب إليه، فلم يجبها إلى ما طلبت منه، لأنه لم يكن يملك من أمر قومه شيئاً، وكان ضعيفاً لا يقدر على مخالفتهم.

فأخذت قريش تشدد الأذى على من قعد به الضعف عن الهجرة من مكة من المسلمين، وأعلنت العداء لأهل المدينة مهم، وقد ذهب سعد بن معاذ إلى مكة للعمرة، فنزل على أمية بن خلف، ثم ذهب معه إلى الكعبة ليطوف بها، فلقيه أبو جهل فقال له: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصُّباة، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد ورفع صوته: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة. يعني طريق تجارة الشام، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد الوادي.

فقابل النبي صلى الله عليه وسلم عداء قريش بمثله، وأذن الله له في قتالها لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر صفر فيا لسنة الثانية من الهجرة، وقد نزلت في ذلك آيات من القرى، ذكرت فيها الأسباب التي دعت إلى الإذن في القتال، ومن ذلك قوله تعالى في الآيات– ٣٨، ٣٩، ٤٠– من سورة الحج (أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في الآيتين– ٧٤، ٧٥– من سورة النساء (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن

يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدُنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيرا).

فهذه الآيات تتضمن ما يأتي من أسباب الإذن في القتال:

١- أن المسلمين قاتلوا من قريش، ومن حق من قوتل أن يدافع عن نفسه بالقتال.

٢- أن قريشاً ظلمت المسلمين أثناء إقامتهم بمكة، ومن حق المظلوم أن ينتقم من الظالم عند قدرته عليه.

٣- أن قريشاً أخرجتهم من ديارهم بغير حق، أنه لا ذنب لهم إلا أنهم آمنوا بالله ودعوا إلى الإيمان به، وهذا ليس بذنب، لأن من حق كل إنسان أن يدين بما يشاء، وأن يدعو إلى ما يراه حقاً، وقد أقرت جميع الشرائع العادلة حرية الدعوة والاعتقاد، لأن في هذا صلاح العالم، وفتح الطريق لنهوضه بالأفكار الصالحة، والآراء الصحيحة.

٤- أن الدفاع عن النفس بالقتال حق مقرر لا يمكن النزاع فيه، ولولا تسليط الله المؤمنين على الكافرين بالجهاد لاستولوا عليهم، وهدموا أمكنة عبادتهم، فلم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد، وليس بعد هذا إلا أن تدول دولة الإيمان، وتستقر عبادة الأوثان والأصنام.

٥- أن المسلمين إذا مُكن لهم في الأرض بالقتال قاموا بصلاحها، وأظهروا العمران فيها، وأحسنوا إلى الطبقات الفقيرة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ومن حق الأصلح أن ينصر على من يناهضه في إصلاحه، وأن يظهر على أهل الفساد في الأرض.

٦- أن قريشاً لم تقلع عن ظلمها بعد إخراجها المسلمين من ديارها، بل استمرت في ظلمها لمن قعد به الضعف في مكة، من الرجال والنساء والوالدان، فمنعتهم من الهجرة إلى إخوانهم بالمدينة، وعذبتهم بالسجن وغيره من صنوف العذاب، فمن حق المسلمين أن يحاربوا في سبيل خلاص أولئك المظلومين، ليمنعوا ذلك الظلم والبغي عنهم، ويمكنوهم من الهجرة إليهم.

وقد استولت قريش على أموال المسلمين بمكة بعد أن أخرجوهم منها، ولم يمكنوا أحدا منهم أن يأخذ معه شيئاً من ماله، اللهم إلا عثمان بن عفان، فإنه تمكن من أخذ جميع أمواله معه، فبدأ المسلمون حرب قريش بالتعرض لقوافلها التي تمر على المدينة بتجارتها إلى الشام، ليستولوا على أموالها كما استولت على أموالهم، على أن الحرب تستباح فيها النفوس، فتستباح فيها الأموال من باب أولى، لتكون تعويضاً لما يضيع فيها من الأموال، فلا يؤخذ على الحرب شيء من ذلك، إذا كانت حرباً مشروعة لم يقصد منها الاعتداء على الناس في أنفسهم وأموالهم، وإنما يقصد منها الدفاع عن النفس.

والحرب في الإسلام حرب مشروعة لا يقصد منها الاعتداء على النفس أو المال، وإنما يقصد منها الدفاع عنهما، لأن الإسلام إنما أذن في قتال من قاتلنا، وقد حرم الاعتداء على من لم يقاتلنا، كما قال تعالى في الآية- ١٩٠- من سورة البقرة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وكذلك أنذر من يقاتل في سبيل المال، فقال تعالى في الآيتين- ٦٧، ٦٨- من سورة الأنفال (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيم، لولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ) وكانوا في غزوة بدر قد عمدوا إلى أسر المشركين دون قتلهم طمعاً في الفداء، وقد جاء في سُنن أبي داود أن من حارب للغنائم لا أجر له، وإنما كان المسلمون يأخذون الغنائم بعد الحرب، ليعوضوا بها ما ضاع منهم فيها، وكان أكثرها ينفق في مصالحهم العامة، ولا يأخذ منها الأفراد إلا بقواعد محدودة، وأحكام تسري عليهم جميعاً.

وقد قامت حروب في هذه الفترة[1]. كان أولها سرية حمزة بن عبد المطلب، وآخرها سرية عبد الله بن جحش، وقد سار بها إلى بطن نخلة، فترصد بها عيراً لقريش. فمرت عليه في آخر يوم من رجب، فحاربها حتى استولى عليها، وكانت العرب تحرم القتال في رجب لأنه من الأشهر الحُرم، وقد جرم الإسلام من ذلك ما حرمت، لأنه دين يدعو إلى

([1]) كانت هذه الحروب بين المهاجرين وقريش، ولم يشترك فيها الأنصار، لأن قريشاً لم تهاجم فيها المدينة حتى يشتركوا في حربها.

السلام، وتحريم القتال في تلك الأشهر مظهر من مظاهره، فلا يسعه إلا أن يقره، ويحرم القتال فيه كما حرمته العرب من قبله.

فلما قدم عبد الله بن جحش المدينة، وشاع أنه قاتل في الأشهر الحرم، عنّفه المسلمون هو وأصحابه على قتاله فيها، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم. فندم عبد الله وأصحابه على قتالهم فيها، وأخذت قريش تعيب على المسلمين انتهاكهم لحرمة هذه الأشهر، فأنزل الله في هذا الآية- ٢١٧- من سورة البقرة (يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) الآية، فوافق المشركين على حرمة القتال في هذه الأشهر، ولكنه رد عليهم بأنهم لا يصح لهم أن يشنعوا على المسلمين بما وقع منهم من خطأ، وقد فعلوا ما هو أكبر منه، إذ أخرجوا المسلمين من المسجد الحرام، وهو البيت الذي جعله الله مناً للناس من عهد إبراهيم عليه السلام، وإنه لمن حسن السياسة الاعتراف بذلك الخطأ.

(٢) بين المسلمين وباقي العرب

جاء في كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني وشرحها للزرقاني أن الكفار كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة على ثلاثة أقسام: قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه، وقيل على ألا يكونوا معه ولا عليه، وقيل على أن ينصروه ممن دهمه من عدوه، وهم بنو قُريظة وبنو النضير وبنو قينقاع من اليهود. وقسم حاربوه ونصبوا له

العداوة، وهم قريش. وقسم تركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره، فإن آل إلى النصر والظفر بقريش تبعوه، وإن كان النصر لهم تبعوهم، وهم باقي العرب، ولكنهم لم يكونوا في ذلك على سواء، فإن منهم من كان يحب ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، كبني خزاعة، ولهذا دخلوا في عهده في صلح الحديبية، ومنهم من كان يحب نصر قريش. كبني بكر، ولهذا دخلوا في عهد قريش في ذلك الصلح، ولا شك أن جمهور القبائل كان يود نصر قريش، ولهذا روى الحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في السلاح.

ولكنهم مع هذا لم يصارحوا النبي صلى الله عليه وسلم العداء في هذه الفترة كما صارحته قريش، فكفّ عنهم ولم يقاتلهم، لأن الإسلام كما سبق لا يقاتل إلا من قاتله، ومن لا يقاتله لا يجوز له أن يقاتله وإن كان ضلعه مع أعدائه، لأن الإسلام يريد أن يدعو الناس بالسلم. فيكف عن القتال ما أمكنه، ولا يقاتل إلا من يقاتله بالفعل. فهو يأخذ المخالفين بالتسامح إلى أبعد حد، ويجتهد في إزالة الضغينة من قلوب أعدائه بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا لم يرفع أحد في وجهه سيفاً لم يرفع في وجهه سيفاً. وإن بلغ ما بلغ في عداوته، وأضمر البغض والحسد له.

على أن السياسة الحكيمة كانت مع هذا تقضي على المسلمين أن يغفروا لقبائل العرب هذه الهنات، وأن يغضوا عن هذه العداوة منهم، ليفرغوا لحرب قريش وحدها، ولا يحملوا هذه القبائل على الانضمام إليها

في حروبها، وبهذا عملت سماحة الإسلام ومصلحة المسلمين على مسالمة قبائل العرب في هذه الفترة، وعلى حصر حالة الحرب فيما بين المسلمين وقريش.

وقد أمكن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقد في هذه الفترة معاهدتين بين المسلمين وقبيلتين من قبائل العرب، وكانت الأولى بين المسلمين وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وادعهم فيها على حسن الجوار، وأن ينصرهم على أعدائهم وينصروه على أعدائه، وهذا نصها:

"هذا كتاب محمد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم بسوء، بشرط ألا يحاربوا في دين الله، ما بل بحر صوفة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله".

وكانت المعاهدة الثانية بين المسلمين وبني مُدلج، وكانوا حلفاء بني ضمرة، فلما وادع النبي صلى الله عليه وسلم بني ضمرة وادعه بنو مدلج أيضاً.

السياسة الداخلية والخارجية من غزوة بدر إلى صلح الحديبية

(١) بين المهاجرين والأنصار

كانت غزوة بدر على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة إلى المدينة، وكانت الحرب في هذه المدة دائرة بين قريش والمسلمين، وكان المهاجرون هم الذين يتولونها وحدهم دون الأنصار، لأن معاهدة العقبة كانت دفاعية من جانبهم، فلم يشتركوا في الهجوم على القوافل التجارية لقريش. ولم يدعهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى مشاركتهم في حربها، بل حصل أن قريشاً أغارت في هذه المدة على سرح المدينة فخرج النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين وحدهم إلى المغيرين من قريش، لأن المغيرين كانوا في عدد قليل، فلم يكن هناك ما يدعو إلى خروج الأنصار.

وكانت تلك المدة كافية لحمل الأنصار على مشاركة المهاجرين في حروبهم، لأنهم صاروا إخوانا في الدين والوطن، وقد اطمأن كل فريق منهم إلى الآخر، وعلم الأنصار أن المهاجرين قد نسوا وطنهم الأول، وحاربوا أهله من قومهم وأقاربهم، فاطمأنوا إلى مشاركتهم في حربهم، وعلموا أن هذا الوطن سيجمع بين الفريقين إلى ما شاء الله، فلا يصح أن ينفرد أحدهم بحرب دون الآخر، ولاسيما بعد أن بدأت قريش بالهجوم على سرحهم، فمن حقهم أن يشتركوا في الهجوم على قوافلها، لأنها لم

ترع إحجامهم عن حربها مع المهاجرين، وهم إخوانهم في الدين، ولهم عليهم حق الوطن والجوار.

وقد حصل هذا الانقلاب من الأنصار في غزوة بدر، لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج فيها لطلب عير عظيمة لقريش، وكانت قادمة من الشام إلى مكة بأموال كثيرة، وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب، ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا، فخرج الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقصدوا معه تلك العير، وقد علم أبو سفيان بخروجهم إليه، فأرسل إلى قريش يخبرها بذلك، فخرجت بجموع كثيرة لتمنع عيرها وتدافع عنها.

وهنا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف موقف الأنصار من قريش، لأن الموقف قد تبدل بعد خروجها بتلك الجموع، فأهمه أن يعرف موقفهم صريحاً، وأن يسجل عليهم الرضا بذلك الانقلاب تسجيلا حاسماً، حتى يصدقوا في القتال. ولا تحدثهم أنفسهم أثناءه بالرجوع عنه، لأنه غير واجب عليهم، ولم يأخذوا على أنفسهم عهداً بالمشاركة فيه. وهذه سياسة حكيمة حازمة، لأن الصراحة في هذه الأمور تؤدي إلى النجاح، وتقضي على عوامل الشك والتردد.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار ليستشيرهم في قتال قريش بعد أن خرجت بتلك الجموع، ويعرف رأي الأنصار خصوصاً في ذلك القتال، لأنهم خرجوا بالفعل على المعاهدة الدفاعية التي بينهم وبين المهاجرين، ولكن دلالة الفعل لا تكفي في أمر المعاهدات، بل لابد من قول صريح ينسخ تلك المعاهدة، ويسجل على

الأنصار ما أقدموا عليه من مشاركتهم المهاجرين في الهجوم على قريش. فقام أبو بكر الصديق من المهاجرين فقال وأحسن، وقام عمر بن الخطاب منهم فقال وأحسن، وقام المقداد بن الأسود منهم فقال: يا رسول الله، إمض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغِماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يريد الأنصار، فتوجه إليهم وقال لهم: أشيروا عليّ أيها الناس.

وكان الأنصار قد أخذوا بتلك البطولة العظيمة التي ظهرت من المهاجرين، فقام سعد بن معاذ سيد الأوس والأنصار جميعا. وكانت منزلته فيهم كمنزلة أبي بكر الصديق في المهاجرين، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. فقال: أجل فقال له: قد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر[2] فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن

([1]) موضع باليمن وقيل بغيره.

([2]) يعني بحر القلزم، وهو البحر الأحمر.

تلقي بنا عدونا غدا، إنا لَصُبرٌ في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فَسِر بنا على بركة الله.

فَسُرّ النبي صلى الله عليه وسلم بقول سعد، وقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين[1] والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وبهذا انقلب ما بين المهاجرين والأنصار من معاهدة دفاعية إلى معاهدة دفاعية هجومية، فتساوا جميعاً في هذه المعاهدة، ووفى فيها كل منهما للآخر في هذه الفترة وما بعدها، وامتد هذا الحلف إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى ما بعده من العهود الإسلامية المختلفة، بل صار الأمر بين الفريقين أقوى من حلف يجمع بين مختلفين في دين أو وطن، لأنه صار على إخاء متين، زالت فيه الفوارق بينهما، وانقلبا فيه إلى أمة واحدة لا خلاف بينها، ولا يمتاز أحد منهما على الآخر بشيء.

نعم وفي الأنصار لإخوانهم المهاجرين. ولم يسمعوا فيهم لوشايات أقربائهم من المنافقين، وحلفائهم القدماء من اليهود. ووفى النبي صلى الله عليه وسلم لهم، فاتخذ المدينة وطناً له، وآثرها على مكة وطنه الأول بعد فتحها، ولقد خاف الأنصار بعد فتحها أن يؤثر قومه عليهم، وكان قد آثر بعضا منهم بشيء من غنائم حنين تأليفا لهم، فجمع الأنصار وقال لهم: يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، إن قريشا حديثو عهد بكفر

---

(1) العير أو النفير.

ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم أتألفهم، أغضبتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألّفت به قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزول، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحلكم، فو الذين نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار؛ ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قِسما وحظا.

(٢) بين المسلمين واليهود

انقضت الفترة السابقة واليهود يناوئون المسلمين بما كانوا يناوئونهم به، والنبي صلى الله عليه وسلم يطاولهم لعلهم يرجعون عن غيهم، ولأنه كان طارئاً على المدينة، ولم يكن ما بينه وبين الأنصار قد وصل إلى مثل ما وصل إليه بعد غزوة بدر.

فلما انتصر المسلمون في غزوة بدر ذلك الانتصار العظيم، أكل الغيظ قلوب اليهود، وبلغ حسدهم للمسلمين ما بلغ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلين ليبشرا أهل المدينة بذلك النصر، فكبر ذلك على اليهود، وقال كعب بن الأشرف: أحقٌّ هذا؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان، وهؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء لبطنُ الأرض خير من ظهرها.

وكان كعب طويلا جسيما ذا بطن وهامة، وكان يقول الشعر ويجيده، وقد ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فلما تيقن الخبر ورأى الأسرى خرج إلى قريش يبكي قتلاهم، ويحرض بأشعاره على قتال النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى المدينة فتغزل في نساء المسلمين وذكرهن بسوء، وأخذ يحرض الناس على المسلمين.

وكان يهود بني قينقاع ينزلون بين المسلمين بالمدينة، وكانت منازلهم عند جسر بُطحان مما يلي العالية. وقد اتخذوا الصياغة بالمدينة حرفة لهم. فكانوا أكثر اليهود مالا، وأشدهم شجاعة وبغياً، وكان بينهم وبين عبد الله بن أبي رئيس المنافقين حلف قبل الإسلام، فزاد هذا في بغيهم، وظنوا أن عبد الله لا يفرط في حلفهم، وقد بلغ من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب[1] فباعته بسوق بني قينقاع، ثم جلست إلى صائغ بها من اليهود، فجعل هو وإخوانه يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا عليها، فصاحت واستغاثت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه.

فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يضع حداً لهذه الخيانات من اليهود. وقد صار في حال تمكنه من وضع حد لها، فبدأ بيهود بني قينقاع لأنهم كانوا يخالطون المسلمين بالمدينة، وكانوا أكثر بغياً وخيانة من غيرهم، ولعل ما يحصل لهم يردع غيرهم من غيهم، ويحملهم على

---

(1) الجلب كل ما يؤتي به إلى السوق ليباع فيها.

مراعاة عهدهم للمسلمين، وتقدير ما بذلوا لهم في ذلك العهد من مساواتهم بهم في وطنهم العربي، وعدم امتيازهم فيه بشيء عليهم.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بني قينقاع بسوقهم، ثم قال لهم: يا معشر اليهود، احذرا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة. وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم.

فقالوا له: يا محمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

فعزم النبي صلى الله عليه وسلم على إخراجهم من المدينة إلى الوطن الذي نزحوا منهم إليها، ولكنه أراد أن يعرض عليهم الإسلام قبل أن يخرجهم، فلم يجيبوه إلى الإسلام، ولم يحملهم ما أراده من إخراجهم على أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعلنوا أنهم سيحافظون على العهد الذي أخذ عليهم، بل هددوه بقوتهم، ومضوا في عدائهم وبغيهم.

فلم يجد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يعلن الحرب عليهم، فحاصرهم خمس عشرة ليلة في حصونهم، حتى نزلوا على حكمه، ثم سألوه أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة، وأن لهم النساء والذرية، وله بقية الأموال من السلاح وآلات الصياغة وغير هذا من أموالهم،

فأخلى سبيلهم على ذلك، وخرجوا من المدينة إلى أذرعات بالشام فنزلوا بها.

ولم يتحرك عبد الله بن أبي إلى نصرهم، ولم يتحرك يهود بني النضير وبني قريظة إلى الدفاع عنهم، لأنهم لم يروا وجهاً لهم في الانضمام إليهم بعد أن قابلوا المسلمين بشدة، وهددوهم بالحرب، وكان في رجوعهم إلى المحافظة على عهدهم وقاية لهم مما جرى لهم، ولكنهم أبوا هذا فتحملوا نتيجته وحدهم.

ولقد كان المسلمون مخلصين لذلك العهد الذي بذلوه لليهود، لأن الإسلام لا يأبى مثل هذه العهود، ولا يزال يمد يده بها إلى كل من يرى مسالمته، ويخلص للعهد الذي يعقد بين أهله وغيرهم، لأنه يريد أن يعيش في صفاء مع الناس، وأن يكتفي بينهم بالدعوة السلمية بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو يتساهل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ونحوهم أكثر من غيرهم، لأنهم أقرب أهل الأديان إليه، ولهذا أباح للمسلمين مخالطتهم وأكل طعامهم وذبائحهم والتزوج من نسائهم، ولم يأب لهم أن يعيشوا معهم أمة واحدة، وأن يجمعهم وطن واحد، فيكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، ولهم شأنهم في دينهم وأحكامهم الخاصة بهم، وهذه حرية دينية واسعة لا نظير لها في دين من الأديان، ومعاملة كريمة لا نظير لها في أمة من الأمم.

ولكن اليهود أعماهم حقدهم عن إدراك فضل الإسلام عليهم، ورأوا أنهم كانوا قبله قد علوا على العرب في بلادهم، فصعب عليهم أن يسوي

الإسلام بينهم وبينهم، وخافوا أن ينهض الإسلام بالعرب نهضة ترفعهم إلى مستواهم، وهم لا يحبون أن يصل أحد إلى ذلك المستوى، لأنهم في زعمهم شعب الله المختار، وأحق الشعوب بخير الدنيا والآخرة.

وسنرى فيما بعد أنهم لم ينتفعوا بما جرى لبني قينقاع، ولم يكن لهم منه عظة وعبرة تخفف من حقدهم، وتحملهم على مراعاة ذلك العهد الذي أخذ عليهم.

وقد كان الإسلام أحق بأن يحسد اليهود على ما بلغوه في المدينة من ذلك الغنى الواسع، وذلك الجاه العظيم، ولكن الحسد ليس من خصال الإسلام، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يغبط، والمنافق يحسد، والغبطة من الخصال الممدوحة، لأنها تمني مثل ما للغير من نعمة، أما الحسد فهو تمني زوال نعمة الغير، فلا يرضى الإسلام لنفسه أن يحسد اليهود على ما بلغوه من مال وجاه، وإنما يعمل على أن يصل أهله إلى مثل ما لهم وجاههم، وليس في هذا ما يؤخذ عليه، وإنما هو تنافس ينفع الناس ولا يضرهم، ويسوي بين طبقات الأمة في توزيع الثروة، فلا تستأثر بها طائفة دون طائفة، ولا يكون الغنى وقفاً على بعض الناس، والفقر وقفاً على آخرين منهم.

لقد كان ما جرى لبني قينقاع في السنة الثانية من الهجرة، وقد كان فيه ما يكفي لحمل ما بقى من اليهود بجوار المدينة على التفكير فيما هم فيه من البغي على المسلمين، وعدم الوفاء بعهودهم؛ ولكن حقد اليهود على المسلمين كان يعميهم عن هذا التفكير، فلم يفد ما جرى

لبني قينقاع شيئاً فيهم، بل مضوا هم والمنافقون في تدبير المكايد للمسلمين، وفي الاتصال بقريش في السر للاتفاق معها على القضاء عليهم.

فلما كانت السنة الثالثة من الهجرة أقبلت قريش بجموع كثيرة تريد الهجوم بها على المدينة، فأخذ يهود بني النضير يكيدون للمسلمين، ويظهرون العداوة والبغضاء لهم، وقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم منهم أن يقرضوا أموالهم لله ليجاهد بها في سبيله. وهم يؤمنون به كما يؤمن المسلمون به، وقريش مشركة تعبد الأوثان والأصنام، فقالوا له: تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذن فقير ونحن أغنياء، فأنزل الله فيهم الآية– ١٨١– من سورة آل عمران (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق).

وهكذا أبى أولئك اليهود أن يساعدوا النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من أموالهم، مع أن المعاهدة التي أخذوها على أنفسهم تقضي عليهم بذلك، وقد كان يريد أن يكتفي منهم بالمساعدة المالية. ولا يريد أن يشاركوه في الجهاد بأنفسهم، لأنه لم يكن مطمئناً إليهم، ولو أنه طلب هذا إليهم لتثاقلوا عنه أيضاً، وقد دعاهم مخيريق اليهودي إلى الجهاد حين أقبلت قريش، وهو أحد بني ثعلبة بين الفطيون فقال لهم: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. فقالوا له: إن

اليوم يوم السبت. فقال لهم: لا سبت لكم. ثم أخذ سيفه وعدته وقال: إن قتلت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى القتال فقاتل حتى قتل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مخيري خير يهود.

وقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم من مخيريق أن يشاركه في ذلك القتال، لأنه كان مخلصاً للمسلمين، ولم يخش من مشاركته لهم ضرراً عليهم، ولهذا رد كتيبة خرجت من اليهود لتشاركه في القتال ولأنه سأل عنها فقيل له: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود، فأمر بردهم وقال: إنا لا نستعين بكافر على مشرك.

وقد أصيب المسلمون في هذه الغزوة (غزوة أحد) بما أصيبوا به، فأظهر بنو النضير الشماتة فيهم، وأظهروا ما كانوا يخفونه من العداوة والبغض، وأخذوا يطعنون في النبي صلى الله عليه وسلم، ويشككون من نبوته بما حصل للمسلمين من الهزيمة في هذه الغزوة، وكانوا يقولون لمن يجلس إليهم: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب بمثل هذا نبي قط، أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه.

وبهذا نقض بنو النضير عهدهم مع المسلمين، ولم يقوموا لهذا الوطن الذي آواهم بواجب الدفاع عنه، فصار من حق المسلمين أن يجلوهم عنه، كما أجلوا بني قينقاع من قبلهم، ليعطوا غيرهم من اليهود درساً جديداً، يعلمهم المحافظة على العهود، ويذكرهم بما يجب عليهم لهذا الوطن.

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم محمد بن مسلمة الأنصاري أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن رؤى منكم بعد ذلك ضربت عنقه.

فلما بلغهم محمد بن مسلمة ما أرسل به هموا بالخروج، وقد عرفوا ما حصل لبني قينقاع من قبلهم، ولكن عبد الله بن أبي أرسل إليهم لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي يدخلون حصونكم، ويموتون عن آخرهم.

فاغتروا بقول عبد الله بن أبي، وأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

وكانوا ينزلون بوادي بطحان بظاهر المدينة، على ميلين أو ثلاثة منها. فسار النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، ولم يتحرك عبد الله بن أبي لمساعدتهم. فلما يئسوا منه أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب، فأجابهم إلى ما طلبوا. فخرجوا من واديهم فقصد بعضهم خيبر فنزل بها، وقصد بعضهم أذرعات فنزل بجوار بني قينقاع.

وقد بقى بنو قريظة من اليهود الذي دخلوا في عهد المسلمين، وكانوا أرعى لعهدهم من بني فينقاع وبني النضير، لأنهم كانوا ضعفاء في الجاهلية، فكان بنو النضير يبغون عليهم، وينزلونهم في منزلة دون

منزلتهم، ومن هذا أنهم كانوا يجعلون دية الواحد من بني قريظة نصف دية الواحد من بني النضير، فكانت الدية من التمر أربعين ومائة وسق لبني النضير، وسبعين وسقاً لبني قريظة، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم شكوا إليه ذلك، فسوى بينهم وبين النضير في الدية، وحكم بأن دم القُرظي وفاء من دم النضري.

فعرف بنو قريظة للإسلام جميله عليهم، ولم يحركوا ساكناً عند جلاء يهود بني قينقاع وبني النضير، ومكثوا على هذا إلى السنة الخامسة من الهجرة، وكان زعماء بني النضير قد عملوا على إثارة قريش وقبائل العرب على المسلمين، وقد أعمالهم الحقد عليهم حتى باعوا في ذلك دينهم، فإنهم لما قدموا على قريش ودعوهم إلى حرب النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بلى دينكم خير من دينه.

وهذه أكبر فضيحة لأولئك اليهود، لأن دين محمد هو التوحيد ودين قريش هو الشرك، ودين اليهود هو التوحيد لا الشرك، فكيف يحكمون بأن دين الشرك خير من دين التوحيد، وقد أخذ الله عليهم هذا في الآية– ٥١– من سورة النساء (الم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) ثم حكم بأن هذا منهم ردَّة عن دينهم في الآيتين– ٨٠، ٨١– من سورة المائدة (ترَى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس

ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) فالمراد بالنبي موسى عليه السلام، وبما أنزل إليه التوراة.

وقد تعهد حُي بن أخطب سيد بني النضير لقريش أن يحمل بني قريظة على نقض عهد المسلمين إذا أجابوه إلى حربهم، فسارت قريش ومن انضم إليهم من قبائل العرب في عشرة آلاف لحرب المسلمين، فخندق النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة، وأتى هذا الجيش الكثير فحاصرها، وكان جيش المسلمين لا يجاوز ثلاثة آلاف رجل، وقد قال الحصار عليهم حتى ضاف به فقراؤهم، وأظهر أهل النفاق ما تكنُّه صدورهم، فأخذوا يفرون إلى بيوتهم زاعمين أنها عورة وأنهم يخافون أن يغير العدو عليها.

وكان بنو قريظة آمنين في حصونهم لا يحاربون مع المسلمين كما يقضي عهدهم عليهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يأمن جانب اليهود في الحرب، فسار إليهم حي بن أخطب ليحملهم على نقض عهدهم للمسلمين كما وعد قريشاً، ونزل على سيدهم كعب بن أسد فقال له: ويحك يا كعب، جئتك بعزّ الدهر، وببحر طامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنب نَقمي إلى جانب أُحد. قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حي، فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

فلم يزل حي يفتله في الذروة والغارب حتى أجابه إلى نقض عهد المسلمين، بعد أن أعطاه عهداً وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه في حصنه، فيصيبه من المسلمين ما يصيبه.

فاشتد الخطب على المسلمين حين علموا بنقض بني قريظة عهدهم، ووقعوا في رعب شديد، حتى قال بعض المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وهنا تدارك الله المسلمين برحمته، وهدى زعيما من زعماء المشركين إلى الإسلام، وهو نُعيم بن مسعود الأشجعي، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في السر، وأخبره بإسلامه وطلب إليه أن يأمره بما شاء، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنما أنت فينا رجل واحد. فخذل عنا إن استطعت. فإن الحرب خدعة.

والخدعة هنا سياسة بارعة شريفة تقي من العدو الظالم، وتعمل على التخلص منه بالحيلة، ولو استعمل فيها الكذب، لأن الضرورات تباح فيها المحظورات بل تجب. وقد ضاق الأمر بالمسلمين، وأصبحت هذه الوسيلة لازمة لإنقاذهم، وقد تمت على وجه كريم لا شيء فيه يدنس

الشرف، أو يقدح في براءتها من الإثم، ولم يرتكب فيه ما يرتكب الآن في مثل هذه الوسائل، من الاتجار بالأعراض، وبذلها رخيصة في سوق التجسس، وما إلى هذا مما يقدح في الشرف ويخل بالمروءة، ويأباه الدين والخلق الكريم.

فسار نعيم بن مسعود إلى بني قريظة، وكان لهم نديماً، فلما رأوه رحبوا به، وعرضوا عليه الطعام والشراب، فأخبرهم بأنه جاءهم لغير هذا، وأنه يخاف عليهم إذا حاربوا محمداً أن تتركهم قريش وليس لهم طاقة به، وأنه يرى أن يأخذوا رهنا من أشرافهم تكون ثقة بأيديهم قبل أن يحاربوا معهم، وقد استحسنوا ما أشار به عليهم، فأمرهم بكتمان اتصاله بهم.

ثم سار إلى قريش فأخبرهم بأن بني قريظة ندموا على نقض عهد محمد، وأنهم يريدون أن يرضوه بأخذ سبعين من أشرافهم ليكونوا رهناً عندهم، ثم يقدموهم إليه ليقتلهم، وطلب منهم أن يكتموا ما حدثهم به.

فلما أرسلوا إلى بني قريظة يدعونهم إلى القتال طلبوا منهم أن يعطوهم رهناً، حتى لا يتركوهم ويذهبوا إلى مكة، فاعتقدوا صدق ما أخبرهم به نعيم بن مسعود عنهم، ولم يجيبوهم إلى ما طلبوا من الرهن، فلم يجيبوهم أيضاً إلى ما طلبوا من القتال، وفسد ما بينهم بهذه الحيلة البارعة.

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بعمل أبرع من عمل نعيم بن مسعود، أمكنه به أن يُقدم إليه زعيمين من زعماء الجيش المحاصر:

وهما عُيينة بن حصن والحارث بن عوف، ليعرض عليهما صلحا منفرداً على أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة، وقد جاءا إليه في خفية، وطلبا منه نصف هذه الثمار فأبى، ثم أرسل إلى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فاستشارهما في ذلك الصلح، فقالا له: يا رسول الله، إن كان أمرا من السماء فامض له، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمعا وطاعة، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف. فقال لهما: لو أمرني الله ما شاورتكما. فقال لعيينة بن حصن والحارث بن عوف: ارجعا، بيننا وبينكم السيف.

فرجع عيينة بن حصن والحارث بن عوف بعد أن قاما بهذه الخيانة لقريش، فأفسدت نفوسهما، وملأتهما وخوفاً وقلقا من أن تعلم قريش أمرها، ولابد أن المسلمين أشاعوا اتصالهما بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولابد أن قريشا وصلها ما أشاعه المسلمون عنهما، فدخل في نفوسها شيء كثير من جهتهما، وضعفت ثقتها فيهما.

ولقد أصبح الجيش المحاصر بفضل هذين العملين البارعين يخشى بعضه بعضا، فوقع الارتباك في صفوفه، وملأ الرعب قلوب جنوده، وما هي إلا ريح باردة أرسلها الله في ليلة مظلمة حتى أدركهم فيها من الرعب ما أدركهم، وخافوا أن يبيتهم المسلمون وبنو قريظة فيها. فأجمعوا على الرحيل قبل الصباح، ولولا هذان العملان البارعان لوصلوا إلى ما أردوه من استئصال المسلمين.

ولقد كان جرم بني قريظة أشد من جرم بني قينقاع وبني النضير، لأنهم ارتكبوا هذه الخيانة العظمى لوطنهم، وانضموا إلى أعدائه في هجومهم عليه، فلم يمهلهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد رحيل قريش، وكان قد رجع إلى المدينة في وقت الظهيرة، فقال لأصحابه: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة. فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة، إلى أن طلبوا أن ينزلوا من حصونهم على مثل ما نزل عليه بنو النضير، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكمه من غير قيد ولا شرط، فرضوا بذلك، وقد مشى في أمرهم رجال من الأوس، لما كان بينهم من الحلف قبل الإسلام، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم بمثل ما عامل بني النضير به، فأبى أن يجيبهم إلى هذا. ولكنه رأى من السياسة والحكمة أن يجعل الحكم فيهم لسعد بن معاذ سيد الأوس، فحكم سعد فيهم بأن تقتل رجالهم، وتسبي نساؤهم وذراريهم، وهذا هو حكم الخيانة العظمى في كل الشرائع القديمة والحديثة، لأنهم انضموا إلى من كان يريد استئصال المسلمين، فجزاهم الله تعالى استئصالا باستئصال.

وهكذا انتهت معاهدة المسلمين ويهود المدينة بهذه الكوارث التي حلت بهم، لأنهم لم يخلصوا لها حين عقدوها، وقد طاولهم النبي صلى الله عليه وسلم ما طاولهم، وأخذهم بنقض العهد قبيلة بعد قبيلة، ليعطي ما بقى منهم مهلة لمراجعة أنفسهم، ولكنهم قوم لا تؤثر فيهم هذه السياسة الكريمة، ولا يمكن أن تقلع من نفوسهم ما طبعت عليه من إيثار

مصالحهم الخاصة على غيرها، والنظر بعين العداوة إلى كل من يخالفهم في دينهم أو جنسهم.

(٣) بين المسلمين والمنافقين

كانت هذه الفترة كسابقتها فيما بين المسلمين والمنافقين، فاستمر المنافقون على الكيد للمسلمين فيما بينهم. واستمر النبي صلى الله عليه وسلم يغضي عنهم، وينهج سياسته الحكيمة في مطاولتهم والحذر منهم، ومراعاة قرابتهم لأنصاره من الأوس الخزرج، وقد أراد في هذه الفترة أن يتخلص أولا من أمر يهود المدينة، لأنهم كانوا أقوى كيداً من المنافقين، ولأنه رجا أن يصلح بعض حال المنافقين بعد تخلصه منهم، فيقل عددهم، ويخففوا من كيدهم.

وقد جرت منهم في هذه الفترة أحداث عالجها النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السياسة الحكيمة، فمنها ما جرى من عبد الله بن أبي في غزوة أُحد. وكان قد خرج فيها مع المسلمين لا ليشاركهم في الجهاد، ولكن لينفذ مؤامرة دبرها لخذلانهم، فلم يكد يصل إلى الشوط– بين المدينة وأحد– حتى انخزل بالمنافقين وبعض الضعفاء. وكانوا يبلغون ثلث الجيش، فتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام، وقال لهم: يا قوم. أذكركم الله، لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر عدوهم.

فقال له عبد الله بن أبي: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال.

فلما استعصوا على عبد الله بن عمرو بن حرام قال لهم: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عز وجل عنكم نبيه صلى الله عليه وسلم.

وقد نزل في قول عبد الله بن أبي قوله تعالى في الآيتين ١٦٦، ١٦٧- من سورة آل عمران ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لم نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾.

وقد كان عبد الله بن أبي قبل غزوة أحد له مقام يقومه كل جمعة إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب، فكان يقوم هو فيقول: أيها الناس، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم به. فانصروه وعزروه واسعوا له وأطيعوا. ثم يجلس، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم من أحد إلى المدينة وجاء يوم الجمعة، قام عبد الله بن أبي على عادته يريد أن يقول ما كان يقول، وكأنه نسى ما فعله من رجوعه في هذه الغزوة بثلث الناس، ومحاولته إحداث الرعب بهذا في قلوب المسلمين، فأخذ الناس بثيابه من نواحيه وقالوا له: إجلس عدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت. فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجراً[1] أن قمت أشدد أمره! فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال له: مالك ويلك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجبذونني ويعنفونني، لكأنما

---

(1) البجر الشر والأمر العظيم والعجب.

قلت بجراً أن قمت أشدد أمره. فقال له الأنصاري: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

ومن تلك الأحداث مؤامرة المنافقين على المهاجرين في غزوة بني المصطلق، وكانت في السنة الخامسة من الهجرة، وذلك أن أجيرا لعمر بن الخطاب من– غفار وأنصارياً تزاحما على الماء فاقتتلا، فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار وصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين. فأقبل الذُّعر من الفريقين، وكادوا يقتتلون. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة. ثم أصلح بين الفريقين.

فجمع عبد الله بن أبي رهطا من الخزرج، وقال لهم: ما رأيت كاليوم مذلة، أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في ديارنا، الله ما أعدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول– سمِّن كلبك يأكلك– أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبل عليهم فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان بين الحاضرين في مجلسه من قومه زيد بن أرقم، وكان غلاما حدثا، فنقل كلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عنده عمر بن الخطاب، فاستأذنه في قتله فنهاه عنه، وقال له: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذِّن الناس بالرحيل.

فارتحل الناس إلى المدينة، ولما علم عبد الله بن أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه مؤامرتهم، جاء إليه فحلف ما قال شيئاً مما بلغه، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام– زيد بن أرقم– قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قاله الرجل. وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي– وكان صادق الإيمان على عكس أبيه– فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرني، فسأحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وقد كان لهذه السياسة الكريمة أثرها في قوم عبد الله بن أبي بعد هذا، فكانوا إذا أحدث الحدث بعده هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فعلوا ذلك يقول لعمر بن الخطاب: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتله يوم قلت لي اقتله لأرعدت آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري.

وقد أنزل الله سورة المنافقين في هذه المؤامرة (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن

المنافقين لكاذبون، اتخذوا أيمانهم جُنة فصدُّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) الآيات.

وما أصدق قول الله تعالى في أولئك الضعاف من المنافقين، وما أحكم ما أمر به من أخذ الحذر منهم، والاقتصار على هذا في شأنهم، لأنهم قوم ضعاف القلوب يحسبون كل صيحة عليهم، فمثلهم لا يخشى منهم أن يظهروا بحرب، وإنما قصاراهم تدبير المكايد والتجسس لأعداء المسلمين، والأخذ بالحذر في هذا يكفي في النجاة من ضرره، وإفساد أمره، ولا ينبغي أن يهتم في أمرهم بأكثر من هذا، لحقارة أمرهم، وحقارة أمر رئيسهم عبد الله بن أبي. فإن ما أتاه في الحادثتين السابقتين لا يفعله رجل من الرجال، وإنما هو لعب أطفال، وضعف أخلاق، والطفل لا يعامل معالة الرجال، وإنما يُغضي عنه، ويهمل أمره.

وهكذا أهمل النبي صلى الله عليه وسلم أمر أولئك المنافقين، فلم يعتمد عليهم في شيء من أموره، ولم يطلعهم على شيء من أسراره، بل تركهم يمرحون في نفاقهم حتى ينفضح أمرهم، ويكتوون بنار الحقد في نفوسهم حتى تأتي عليهم.

السياسة الخارجية من غزوة بدر إلى صلح الحديبية

(١) بين المسلمين وقريش

ابتدأ المسلمون قريشاً في الفترة السابقة بالهجوم على قوافلها التجارية إلى الشام، وقد انقلبت قريش في هذه الفترة إلى الهجوم على المدينة. فغزتها مرتين: أولاهما في السنة الثالثة من الهجرة، وقد سارت إلى غزو المدينة في ثلاثة آلاف رجل، ومعها الأحابيش– وهم حلفاؤها من بني المصطلق وبني الهون وغيرهم– فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليشاورهم فيما يفعله لدفع هذا الغزو، فلما اجتمعوا أشار بعضهم أن يبقوا في المدينة، ليتحصنوا بها ويقاتلوا داخلها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحاب هذا الرأي، وأشار بعضهم بالخروج إلى قريش ومقاتلتها خارج المدينة، وكان أصحاب هذا الرأي أكثر عدداً من أصحاب الرأي الأول، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ برأيهم وإن خالف رأيه، ليكون الأخذ برأي الأكثر عدداً أساس حكم الشورى، وهذا هو الأساس الذي تجرى عليه الآن الحكومات الشورية الحديثة، لأن الخلاف في مثل هذا إنما يكون في مسائل اجتهادية، وفي الأخذ برأي الأكثر فيها أمان من الفتن، وحفظ لوحدة الأمة.

وهذه الغزوة تسمى غزوة أحد، وقد رتّب النبي صلى الله عليه وسلم فيها جيشه، وكان عدده ألف رجل، واختار للرماة مكانا أمرهم ألا يبرحوه نصر المسلمون أو غلبوا، ثم دار القتال فانتصر المسلمون

وأخذوا يجمعون الغنائم، فنسى الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا أماكنهم إلى جمع الغنائم، وكشفوا ظهر المسلمين لأعدائهم، فأتى خالد بن الوليد- وكان لا يزال مشركا- فدهمهم بجيش من خلفهم، فأوقع بهم وهم مشتغلون بجمع الغنائم، فانهزم كثير منهم إلى المدينة. وثبت النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه، فأصيب هو ومن ثبت معه بجراحات كثيرة، ولكنهم صبروا وأظهروا من ضروب الشجاعة ما بهر المشركين، وجعلهم يرضون بما أصابوا من المسلمين، ويعلنون وقف القتال، ولعلهم خافوا أن يرجع من انهزم من المسلمين إليهم فهزموهم كما هزموهم أولا.

وقد أراد الله أن يمتحن المسلمين في هذه الغزوة بعد أن أظفرهم بالمشركين في غزوة بدر، ليعلموا أن أمرهم سيجرى على ما سَنّه للناس في حروبهم، نصر وهزيمة، ليذوقوا طعم الاثنين، فلا يبطرهم النصر، ولا توقعهم الهزيمة في اليأس، وليعلموا أنهم شعب كسائر الشعوب، فلا يغتروا بأنفسهم كما اغتر أهل الكتاب من قبلهم، ولا يعتقدوا أن نصر الله ينال جزافاً، بل ينال بالأخذ بأسبابه، من حسن الطاعة للقائد، والإخلاص في القتال. إلى غير هذا من أسباب النصر.

وكانت الغزوة الثانية في السنة الخامسة من الهجرة، وقد قصدت قريش المدينة فيها بعشرة آلاف رجل، وكان معها حلفاؤها من اليهود وبني غطفان وبني مُرة وبني أشجع وبني سُليم وبني أسد وغيرهم من قبائل العرب.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يستشيرهم في أمرهم، فقال له سلمان الفارسي: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا. فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه، لأن الإسلام لا يأبى أن يأخذ بالنافع من غيره، ولا يعرف التعصب الأعمى الذي يمنع الشعوب الجاهلة من الاستفادة من غيرها، بل يقوم أمره على المحافظة على القديم الحسن، والأخذ بالجديد النافع.

فأقام النبي صلى الله عليه وسلم خندقا شمالي المدينة، من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، لأن باقي جهاتها كانت مشتبكة بالبيوت والنخيل، فلا يمكن العدو أن يأتيها من ناحيتها.

فلما وصل المشركون إلى المدينة وجدوا أمامهم ذلك الخندق، فأوقعهم في الدهش والحيرة، حتى قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. وقد حاولا أن يقتحموه فلم يمكنهم، فأقاموا أمامه يحاصرونه المدينة حتى طال الحصار عليهم، وأوقعا الله الخلف بينهم، فانصرفوا عن المدينة في ليلة أرسل الله عليهم فيها ريحا عاتية، وقد أدركهم الرعب والخوف من المسلمين.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافهم. الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم.

وهذه الغزوة تسمى غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب، وقد رأت قريش فيها أنها تحارب عدواً لا تقدر على أساليبه في القتال، ولا تقوى

على سياسته في الحرب، وقد كلفها في حربه من الأموال ما كلفها، فلم تنل منه شيئاً، فانصرفت نفوسها عن غزو المدينة، وابتدأ أمرها في الضعف بعد هذه الغزوة، وبهذا كانت هذه الغزوة نقطة تحول فيما بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش، فابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم يسلك معها سياسة جديدة تلائم ما صارت إليه، وسنبينها في الفترة الآتية.

(٢) بين المسلمين وباقي العرب

كان جمهور القبائل العربية يميل إلى قريش، لأنها توافقهم في الشرك، ولكنهم لم يشاركوها في الفترة السابقة، لأنهم ظنوا فيها القدرة على حرب المسلمين، فلما أصيبت في غزوة بدر بما أصيبت به حالفها كثير من تلك القبائل على حرب المسلمين، كبني الهون، وبني المصطلق، وبني غطفان، وبني مُرة، وبني أشجع، وبني سليم، وبني أسد.

فكثر بذلك أعداء المسلمين في جزيرة العرب، وقد اتبع النبي صلى الله عليه وسلم في حربهم سياسة حكيمة جبرت قلة عدد المسلمين، وكفلت لهم النجاة من المآزق التي كانوا يقعون فيها، فكان إذا رأى هذه القبائل قد اجتمعت لحربه، تركهم يسيرون إليه بالمدينة، ليحاربهم قريبا من موطنه، ويحتمي بما حبته الطبيعة من جبال ونحوها مما يساعده على قتالهم، وكان هذا يكلفهم سيراً شاقاً إليه، ويبعد بهم عن مواطنهم، فلا يصلون إليه إلا وقد أنهكهم السفر، وفقدوا كثيراً من قوتهم ونشاطهم، وهذا هو الذي حصل منه في غزوة أحد وغزوة

الأحزاب، فلولا قربه من موطنه في الغزوة الأولى لكانت نتيجتها وبالاً على المسلمين، فإن قريشا وحلفاءها لما رأوا ثبات النبي صلى الله عليه وسلم بعد انهزام بعض أصحابه، خافوا أن يرجع إليه من انهزم منهم لقرب موطنهم، فأعلنوا وقف القتال، وكان المسلمون في أشد حاجة إلى وقفه، وكذلك كان لقرب المسلمين من موطنهم في غزوة الأحزاب أثره في نجاتهم من مأزقها، ولولا ذلك لضاعت قلتهم في تلك الجموع التي كانت تحاربهم.

وكان صلى الله عليه وسلم يبث العيون والأرصاد على هذه القبائل التي تحالفت على حربه، فإذا علم أن قبيلة منها تريد أن تأخذه بغتة في المدينة أخذها هو قبل أن تأخذه، وباغتها بحربه قبل أن تباغته، كما فعل ببني المصطلق في السنة الخامسة من الهجرة، فقد علم أنها تجمع الجموع لحربه في تلك السنة، وكان هذا قبل غزوة الأحزاب، وقد سبق أن هذه القبيلة ساعدت قريشاً في غزوة أحد، فسار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأوقع بهم قبل أن يستعدوا له، وقد حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فلم يتركوا لهم مجالا للهرب، بل قتلوا عشرة منهم، وأسروا باقيهم مع النساء والذرية، واستاقوا إبلهم وشياههم، وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة آلاف، وكان في النساء بَرَّة بنت الحارث سيدهم، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم مثلا كريماً يبين لهم شرف الإسلام، ويظهر لهم أن سياسته لا تقوم على الطمع والجشع، فتزوج برة بنت الحارث ليحمل أصحابه على إكرام قومها، ويبعثهم على الصفح عنهم، وقد كان له ما أراد، فإنه لما فعل هذا قالوا: أصهار رسول

الله، لا ينبغي أسرهم في أيدينا. فمنُّوا عليهم بالعتق وردوا إليهم أموالهم، فأسلموا عن آخرهم. وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم برةُ جويرية، فكانت كما قالت عائشة أيمن امرأة على قومها.

(٣) بين المسلمين ونصارى الحبشة ودومة

كانت صلة المسلمين بأهل النصرانية مقتصرة في الفترتين السابقتين على أهل الحبشة، وذلك بوساطة من هاجر إليهم من المسلمين قبل الهجرة إلى المدينة، وقد بقوا هنالك أيضاً في هذه الفترة في خير جوار، وأطيب عيش، فكانت العلاقة بين المسلمين وأهل الحبشة علاقة لا يشوبها كدر، ولا يعكر صفاءها شيء، وكان للمسلمين دينهم، ولأهل الحبشة دينهم، وللسياسة حكمها في الوفاء بعهد الجوار، ولا يهمها ما بين الفريقين من اختلاف الدين.

وقد اتصل المسلمون في هذه الفترة بأهل دومة الجندل من النصارى، وكانت في مدينتهم تقع على حدود الشام، وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة، وبينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وكان أهلها يظلمون من يمر بهم من المسلمين في تجارته إلى الشام، ولعلهم غضبوا لتعرض المسلمين لقوافل أهل مكة، لأنها كانت تمر عليهم فينتفعون بها، فأرادوا أن ينتقموا من المسلمين ليكفوا عن التعرض لها، ولم يقتصروا على هذا، بل أرادوا أن يقصدوا المسلمين بالمدينة ليوقعوا بهم.

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك خرج إليهم في ألف رجل وكان هذا في السنة الخامسة من الهجرة، فلمادنا من مدينتهم خرجوا منها خوفاً منه، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصيب من أصيب، وهرب من هرب، ثم بثّ السرايا هنا وهناك فلم يجدوا أحداً، فرجع إلى المدينة بما معه من غنائم.

ثم أرسل إليهم في السنة السادسة من الهجرة سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف وأوصاهم ألا يغلوا ولا يغدروا ولا يمثلوا ولا يقتلوا وليداً، فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو، وأسلم معه جمع من قومه، ورضى من لم يسلم منهم بدفع الجزية.

وقد كان أهل دومة الجندل أول من حاربهم المسلمون من النصارى، وكانوا هم البادئين بحرب المسلمين، فلم يحاربهم المسلمون إلا بعد أن بدأوهم بالعدوان، وكان موقف الإسلام منهم كموقفه من قريش واليهود.

السياسة الداخلية والخارجية من صلح الحديبية إلى فتح مكة

السياسة الداخلية من صلح الحديبية إلى فتح مكة

(١) بين المسلمين والمنافقين

تمتد هذه الفترة من صلح الحديبية إلى فتح مكة- وكان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وكان فتح مكة في السنة الثامنة منها، وقد خلت المدينة فيها من قبائل اليهود الثلاثة (بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة) فلم يبق فيها إلا هذان الفريقان: المسلمون والمنافقون.

وقد بقى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة على سياسته في مطاولة المنافقين، وإيثار أخذهم بالتسامح والعفو، ولاسيما أنهم في هذه الفترة آثروا أن يركنوا إلى السكينة والهدوء، وأن يتركوا ما دأبوا عليه في الفترتين السابقتين من تدبير المؤامرات والمشاكل للمسلمين، والسعي في نشر الفتن بينهم، وكان لهذا عاملان: أولهما أن اليهود هم الذين كانوا يحرضون أولئك المنافقين على هذه المؤامرات، وكان أولئك المنافقون يجدون منهم حلفاء أقوياء، فكانوا يظنون أنهم بمساعدتهم سيمكنهم التغلب على المسلمين، فلما غلب اليهود على أمرهم خاف أولئك المنافقون على أنفسهم، وأشفقوا أن يخرجهم المسلمون من المدينة كما أخرجوا اليهود من قبلهم، وهم قوم ضعاف النفوس، فلا يمكنهم أن يقوموا بعمل وحدهم، وقصارى أمرهم أن يكونوا آلات بيد غيرهم، فإذا لم يجدوا من يحركهم ركنوا إلى السكون والهدوء.

أما العامل الثاني فكان في صلح الحديبية بين المسلمين وقريش، لأن أولئك المنافقين كانوا أيضاً يعملون لقريش في المدينة، فكانوا يتجسسون لها على المسلمين، فيبلغونها أسرارهم السياسية والحربية، ويجتهدون في تدبير المؤامرات وخلق المشاكل بين المسلمين، تنفيذاً لرغباتها، ومساعدة لها في حربها.

فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدأ المنافقون، لأن قريشاً انصرفت عن الحرب إلى السلم، وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التي عطلتها الحرب، لتستعيد ما فقدته من أموال. وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التي وقعت بها باستمرارها في الحرب تلك السنين الخمس، وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام، وهي أهم مواردها المالية، فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين، ولم تعد محتاجة إلى تجسسهم لها، ولا إلى ما يدبرونه من فتن ومؤامرات، فسكتوا عما كانوا يدبرونه من ذلك، لأنهم كانوا آلات في يد قريش أيضاً، فلا يتحركون إلا إذا حركتهم، ولا يمكنهم أن يقدموا على شيء من أنفسهم.

السياسة الخارجية من صلح الحديبية إلى فتح مكة

(١) بين المسلمين وقريش

نظر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة نظرة عامة فيما بين المسلمين وأعدائهم، فوجد أنه صار أمام ثلاثة أقسام من الأعداء: قريش بمكة، ويهود خيبر، وقبائل البادية. ثم وجد أن قريشاً قد واصلت حربه خمس سنين، فلم تنل منه شيئاً، بل كان هو الذي ينال فيها، فانتصر عليها انتصاراً عظيماً في غزوة بدر، وقد حاولت أن تثأر لنفسها منه في غزوة أحُد وغزوة الأحزاب، فارتدت في الغزوتين ولم تنل فيهما ما كانت تؤمل منهما، وبقي المسلمون أقوياء يقطعون تجارتها إلى الشام، فأنهكتها تلك الحرب المتواصلة. وفقدت فيها من الأموال والرجال ما فقدت، حتى وقعت في أعظم ضائقة شاهدتها في حياتها، وقد أرادت أن تسلك طريق العراق في تجارتها إلى الشام، بعد أن انقطع طريقها الذي يمر بالمدينة، فأرسلت عِيراً إلى الشام من طريق العراق، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية فاستولت على هذه العير، فتعطلت بهذا تجارتها، وساءت حالها، لأن هذه التجارة كانت أهم مورد لها.

وقد انضم إلى هذا أن سرية للمسلمين أسرت ثمامة بن أثال وهي عائدة إلى المدينة، وكان ثمامة من رؤساء بني حنيفة باليمامة وكانت قريش تعتمد على اليمامة فيما تحتاج إليه من الحبوب، فأكرم النبي صلى الله عليه وسلم ثمامة وفكَّ إساره، فلما رأى هذه المعاملة الكريمة آمن

به، ثم رجع إلى بلاده فمر بمكة معتمراً، وأعلن فيها إسلامه، فأرادت قريش أن تؤذيه، ثم ذكرت حاجتها إلى حبوب اليمامة فكفَّت عنه، ولكنه حلف بعد أن فارق مكة ألا يرسل إلى أهلها حبوباً حتى يؤمنوا.

فاستحكمت الضائقة بأهل مكة، وأصابهم جدب وقحط، حتى صاروا يأكلون العلهز، وهو الوبر والدم. فلما ساءت حالهم كتبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

"إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا".

ثم أرسلوا إليه أبا سفيان بن حرب برسالتهم، فلما وصل إليه قال له: يا محمد، أنشدك الله والرحم، قد أكلنا العلهز.

فكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة بن أثال أن يرسل إليهم ما يحتاجون من الحبوب، لأن الإسلام دين رأفة ورحمة، وليس من أصوله أن يلجئ الناس بمثل هذا إلى الإيمان به، ولم تكن سياسة النبي صلى الله عليه وسلم تقوم على الطمع والحقد، حتى تحمله على المضي في تجويع أهل مكة حتى يسلموا أو يهلكوا، كما تفعل السياسة الظالمة في عصرنا. وإنما كانت سياسته تقوم على حب الخير للناس في دنياهم وأخراهم، فكان يشتد عليهم ثم يلين، ويقسو بهم ثم يرحمهم، فكانت سياسته مع أنصاره وأعدائه تجري على وتيرة واحدة: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ثم نظر فوجد أن اليهود قد تجمعوا بخيبر يريدون الانقضاض

عليه، ويجتهدون في تأليب القبائل البدوية على المسلمين، وقد أعمتهم العداوة والحقد، وملأ قلوبهم الغيظ والحسد.

فلما نظر النبي صلى الله عليه وسلم هذه النظرة العامة في أحوال أعدائه، أراد أن يستغل ما أدرك قريشاً من الضعف في مصلحته ومصلحتهم، لأنه كان يرجو الخير لهم، ويطمع في إسلامهم. فعزم على أن يقوم بعمل يؤدي بهم إلى المهادنة، ليتفرغ لأولئك اليهود الذين أعماهم الحقد، ولم يعتبروا بما حصل لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة.

لقد انتهت الفترة السابقة بعجز قريش عن متابعة حربها الهجومية للمسلمين، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم عقب غزوة الأحزاب: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يسير إلى مكة غازياً كما ساروا إليه غازين، لأنه أراد وقد ظهرت قوته وظهر عجزهم أن يبدأهم بالسلم، كما بدأ عهده معهم بالسلم قبل الهجرة، ليعلن للناس أن دينه يسعى للسلم لا للحرب، ولا يعتمد على القوة إذا توفرت له، وظهر أمره فيها على أعدائه، وليس له غرض دنيوي يحمله على استغلال ضعف أعدائه، ليذلهم ويستولى على بلادهم، ويظهر سلطانه وجبروته فيهم، وإنما هو دين رحمة وهداية، فلا تطغيه القوة كما تطغى طلاب الدنيا والملك، بل يعامل عدوه بالرأفة والرحمة عند ضعفه، ليحمله بالحسنى على الاهتداء بهديه، وهذه هي

غايته التي يؤثرها على غيرها من الغايات، ويضحي بكل غاية في سبيل الوصول إليها.

فأراد الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى مكة معتمراً لا غازياً، ليعلن للعرب أن دينه يحترم الكعبة كما يحترمونها، ولا ينسخ شيئاً من شعائرها الصحيحة التي كانوا يقومون بها، فيقرب بينه وبينهم، ويزيل شيئاً من جفونهم له، فأراه الله تعالى في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصَّرين، فأخبر أصحابه برؤياه. وأمرهم أن يتجهزوا للعمرة، ليزوروا المسجد الحرام كما رأى في نومه، ورؤيا الأنبياء حق، وليست كرؤيا غيرهم من الناس.

وقد يقال إنه ليس من حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يقصد المسجد الحرام للعمرة وهو في حالة حرب مع قريش، فكيف يقدم على هذه العمرة في تلك الحالة؟ وكيف تمكنه قريش منها وهو في حالة حرب معها؟

والجواب أن المسجد الحرام بيت الله تعالى لا بيت قريش، فهو حق مشاع للناس جميعاً، وللمسلمين فيه من الحق مثل ما لغيرهم، وليس لقريش أن تمنعهم هذا الحق إذا أرادوا أن يصلوا إليه بالسلم، ولا يستخدموا في الوصول إليه شيئاً من القوة، وقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد هذه العمرة أنه لا يريد حرب قريش، وإنما يريد زيارة المسجد الحرام، على أنه كان يريد أيضاً أن يتصل في هذه العمرة بقريش لمهادنتها، كما سيعلن هذا في خروجه إليها.

وقد خرج إلى هذه العمرة في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وأم سَلمة من أزواجه، وكان معهم هدي كثير يسوقونه إلى فقراء أهل مكة، ولا ينظرون إلى ماضيهم في عداوة الإسلام، لأنهم يريدون أن ينسوا هذا الماضي بآثامه، ويفتتحوا عهد سلام ووئام، ولكن قريشا تقدِّر هذه النوايا الحسنة، ولم تفقه هذه السياسة الجديدة التي يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلكها معها، فلما وصل إلى عُسفان- وهي على مرحلتين من مكة- بلغه أن قريشاً أجمعت على صده عن المسجد الحرام، وأنها أرسلت خالد بن الواليد في مائتي فارس طليعة لها.

فلما بلغه ذلك قال: يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهر الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين، وإن لم يفعوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة.

ثم أمر أصحابه أن يعدلوا عن طريق خالد بن الوليد، حتى لا تقع حرب بينه وبينهم، فتفسد الغرض المقصود من هذه العمرة، فساروا حتى أفضوا إلى الحديبية[١] فلما وصلوا إلى ثنية المرار[٢] بركت ناقة النبي

---

(١) هي بئر على مرحلة من مكة. سميت الأرض التي تقع فيها باسمها.

(٢) هي مهبط الحديبية.

صلى الله عليه وسلم، فزجروها فلم تقم، فقال: حبسها حابس الفيل[1] والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش لخصلة فيها صلة الرحم إلا أجبتهم إليها.

فأعلن سياسته السلمية الجديدة إعلاناً صريحاً، والصراحة في السياسة من أعظم وسائل نجاحها، والوصول بها إلى الغرض المقصود منها، وقد أعلنها إعلان القوي الكريم الذي لا يريد إذلال خصمه في ضعفه. بل يريد أن ينسى ما كان بينهما من حرب وعداوة، وأن يبقى على ما بينهما من رَحِم وقرابة، لأن دينه يأمر بصلة الرحم ويؤثر دفع السيئة بالحسنة. والعفو عند المقدرة.

ثم زجر الناقة فوثبت، فسار حتى نزل بأقصى الحديبية، فلما رأت قريش أنه عدل عن طريق خالد بن الوليد خففت شيئاً من ثورتها، وأرسلت بُديل بن ورقاء الخزاعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ليسأله عما يريد منها، فأتى إليه بديل بن ورقاء برسالة قريش، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بمقصده من العمرة، وذكر له أن قريشاً قد نهكتها الحرب، فإن شاءت وادعها مدة تترك الحرب فيها، وتخلِّى بينه وبين الناس، فقال له بديل: سأبلغهم ذلك.

ثم رجع بديل إلى قريش فأخبرهم بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم من موادعتهم، فلم يقبلوا ما عرضه عليهم من الموادعة، فقال عروة بين مسعود الثقفي: إنه قد عرض عليكم خُطة رشد، اقبلوا ودعوني آته.

---

(1)يعني فيل أهل الحبشة حين قصدوا مكة.

ثم سار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فرأى من إخلاص أصحابه له ما لم يره في حياته، فرجع إلى قريش وقال لهم: والله يا معشر قريش، جئت كسرى في ملكه، وقيصر في عظمته، فما رأيت مَلِكاً في قومه مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فانظروا رأيكم، فإنه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم فإني لكم ناصح، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه، فقالوا له: لا تتكلم بهذا، ولكن نرده عامنا، ويرجع إلى قابل.

ثم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم حُليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم حلفاء قريش، وكانوا يعظمون هدى الكعبة، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يبعثوا الهدى في وجهه حتى يراه، فبعثوه في وجهه واستقبلوه يلبون بالعمرة، فلما رآهم حليس رجع إلى قريش فقال لهم: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا، أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكت قريش ورب البيت، إن القوم أتوا معتمرين. فقالوا له: اجلس، إنما أنت أعرابي، لا علم لك بالمكايد.

ثم رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم عثمان بن عفان يبلغهم مقصده، فأبوا أن يجيبوه إليه، ثم منعوا عثمان أن يرجع إلى الحديبية، مع أنهم أرسلوا رسلهم قبله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يمنعهم من الرجوع إليهم، ولكنه ضيق سياسة الشرك، وسعة سياسة الإسلام.

وقد انتظر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع إليه عثمان فلم يرجع، ثم أشيع بين أصحابه أن قريشاً منعوه وقتلوه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم. لا نبرح حتى نناجزهم الحرب. وهذا بعد أن بلغ في التسامح معهم ما بلغ، ولكن التسامح له حد، فإذا جاوزه كان ضعفاً يضر ولا ينفع.

وكانت قريش قد أرسلت خمسين رجلا ليطوفوا بعسكر المسلمين، لعلهم يصبون غِرّةً منهم، فأسرهم حراس المسلمين، ثم جاء جمع منها وأخذوا يناوشون المسلمين، فأسروا منهم اثني عشر رجلا، وقتل واحد من المسلمين.

فلما رأت قريش ذلك أدركها الخوف، وأرسلت سُهيل بن عمرو بشروطها للموادعة التي يريدها النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أربعة شروط:

(١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.

(٢) من جاء المسلمين من قريش يردونه، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده.

(٣) أن يرجع المسلمون من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي العام المقبل فيدخلون مكة بعد أن تخرج قريش منها، ويقيمون بها ثلاثة أيام، ليس معهم من السلاح إلا السيف في القراب والقوس.

(٤) من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليخبرهم بهذه الشروط، وذكر لهم أنه يرضى بها، ولا شك في أن بعض هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يطاول قريشاً، لأنه يطمع في إسلامهم، وقد أدركهم الضعف والملل من الحرب، والضعيف يشتد في شروطه إذا رأى سماحة من القوي، ولكن هذه الشدة لا تفيده شيئاً، ولا تنجيه من المصير الذي سينتهي إليه بعد أن أخذ أمره في الضعف، فمن السياسة البارّة أن يتهاون معه، وأن يستعان بالزمن على الوصول إلى الغرض المقصود منه، وقريش هم قريش عمود العرب، وأعظمهم رجالاً، وأقواهم على حمل رسالة الإسلام. فليتساهل معهم حتى يحين وقتهم، ويمكن إدخالهم في الإسلام مع صون دمائهم.

ولكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يدركوا شيئاً من هذه الأهداف البعيدة لسياسته الجديدة مع قريش، فداخلهم من تلك الشروط أمر عظيم، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: سبحان الله؟ كيف نرد إليهم من جاءنا منهم مسلماً؟ ولا يردون إلينا من جاءهم مرتداً. فقال لهم: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله فرجاً ومخرجاً[1] وكذلك داخلهم أمر عظيم من الشرط

([1]) قد تحقق هذا بعد عقد الموادعة، لأن الذين ردهم النبي صلى الله عليه وسلم تجمعوا في طريق قريش إلى الشام، وقطعوا عليها تجارتها. فطلبت من النبي صلى الله عليه وسلم إلغاء هذا الشرط.

الثالث. لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا المسجد الحرام آمنين محلقِّين رءوسهم ومقصِّرين. وقد سأل عمر بن الخطاب أبا بكر في ذلك فقال له: وهل ذكر أنه في هذا العام؟

ولم يزل النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه حتى قبلوا هذه الشروط، وفي أنفسهم ما فيها منها، لأنهم كانوا أقوياء، وكانت قريش ضعيفة، فلم يرضهم أن تتحكم في شروطها هذا التحكم، وقد كتبت نسختان بهذه الشروط: نسخة للنبي صلى الله عليه وسلم ونسخة لقريش، وقد قام بكتابتها علي بن أبي طالب، فأملاه النبي صلى الله عليه وسلم في افتتاحها- بسم الله الرحمن الرحيم- فقال سهيل بن عمرو: أكتب- باسمك اللهم- فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فكتبها، ثم أملاه- هذا ما صالح عليه محمد رسول الله- فقال سهيل ابن عمرو: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك، أكتب- محمد بن عبد الله- فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فكتبها.

وأنه لدرس عظيم في السياسة يلقيه النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين، فقد أجاب سهيل بن عمرو إلى ما طلب من هذه الأمور الثانوية، ولم يدعها تعوقه عن مقصده الأول من موادعة قريش، وكثير من الناس تضيق سياستهم، فيقفون عند هذه الأمور الثانوية، ويضيعون في سبيلها غاياتهم ومقاصدهم، وذلك من جمودهم في سياستهم، وتعصبهم فيها لأمور لا يصح التعصب لها.

ولقد كسب النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السياسة الجديدة أعظم مكسب، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التي كانت تقودها لحربه، وكانت تقف منها موقف الزعامة، وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم منها أن تخلى بينه وبين غيرها من العرب، فمكنته بهذه الموادعة مما أراد، وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على أوسع وجه، فكان هذا فتحا عظيما في ميدان السياسة، ومن الفتح في السياسة ما يكون أعظم أثرا من الفتح في الحرب. ولهذا نوَّه القرآن الكريم بهذا الفتح السياسي، فقال تعالى في أول سورة الفتح (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما).

(٢) الآثار السياسية لصلح الحديبية

عادت قريش بعد صلح الحديبية إلى عزلتها، وجمدت على سياستها القديمة في الاهتمام بشئونها الخاصة، والعمل على إعادة تنظيم تجارتها، وإصلاح ما أفسده الحرب منها، ولم تحاول أن تستفيد من الشرط الرابع في ذلك الصلح، وهو أن من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، فقد حصل عقيب عقد الصلح أن تواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش. وتواثبت بنو خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد. وكانت القبيلتان تجاوران مكة، وكان بينهما عداء وتنازع قبل الإسلام، فاكتفت قريش بدخول بني بكر في عقدها، ولم تحاول أن تضم غيرها من القبائل

إليها، وهذا شأن كل من يجمد على القديم، لا يتأثر بما يراه من الأحداث، ولا يغير من أمره شيئاً يلائم ما يلابسه من الظروف والأحوال.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ عقب ذلك الصلح في نشاط عظيم في ميدان السياسة والحرب، فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب، وأخذ في تبليغها إلى ملوك الروم والفُرس والحبشة وأمراء العرب وملوكهم في العراق والشام والبحرين واليمن، ليعرف العرب مدى ما تطمح إليه الدعوة الإسلامية، فتجذبهم إليها، وتحملهم على الإيمان بها.

ثم أخذ يضم إليه قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة، ولم يقتصر على قبيلة خزاعة التي انضمت إليه عقب ذلك الصلح، كما اقتصرت قريش على قبيلة بني بكر.

ثم وجّه ضربة قاضية إلى ألدِّ أعدائه في جزيرة العرب، وهم يهود خيبر، وقد سبق أنهم كانوا أول من يُقصد بذلك الصلح.

(٣) بين المسلمين وباقي العرب

لقد استغلَّ النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية في هذه الفترة خير استغلال بين القبائل العربية، لأنهم أغضبهم أن تنفرد قريش عنهم بذلك الصلح، وهي التي جرتهم إلى حرب المسلمين، وكانت تتولى زعامتهم في هذه الحرب، فصرفوا أنفسهم عنها، ولم تحاول قبيلة منهم أن تدخل في عهدها، وقد فت في عضدهم ما فعلته قريش، فلم

يمكنهم أن يؤلفوا حلفاً بينهم لحرب المسلمين، كما كانوا يفعلون ذلك من قريش قبل عقد ذلك الصلح.

فانتهز النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة، وأخذ يضم إليه تلك القبائل واحدة بعد واحدة، تارة باللين، وتارة بالشدة، فلم يمض سنتان على عقد ذلك الصلح حتى كان أكثر القبائل العربية قد دان للإسلام، وانضم إلى المسلمين. وقريش لا تزال في عزلتها، ولا يزال جمودها في الدين والسياسة يحجب عنها هذه الأحداث الخطيرة، كأن الأمر في هذا كله لا يعنيها وكأن الصلح لم يكن محدوداً بأربع سنين، ثم تعود حالة الحرب بينها وبين المسلمين إلى ما كانت عليه، فتبطل تلك الهدنة التي استنامت لها، وتعود إلى الحرب التي نسيتها.

ولعل قريشاً أدركت عجز سياستها بعد ذلك الصلح، ورأت أنها غُلِبت في ميدان السياسة كما غلبت في ميدان الحرب، فرأت أن تترك أمورها تجري في مجاريها المقدَّرة لها كائنة ما كانت، فقد غلبت على أمرها، وليس لها إلا أن تستسلم لقضاء الله فيها.

ولعلها رأي أن تنتظر ما يؤول إليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ظهر أمره دخلت فيه سليمة وافرة العدد، وكفاها ما ضيعته في حربه قبل غيرها من العرب، وإن بطل أمره كفيت شر حربه، ولم تضف عدداً آخر إلى ما فقدته من رجالها وأموالها.

وستتبين ضخامة عدد القبائل التي انضمت إلى المسلمين في هذه الفترة في ضخامة الجيش الذي سيذهب إلى فتح مكة في الفترة الآتية.

(٤) بين المسلمين واليهود

كان لليهود جالية كبيرة بخيبر، وهي واحة كبيرة توجد على مسافة ستة وتسعين ميلا من المدينة إلى جهة الشام، وقد لجأ إليها فريق من يهود بني النضير وغيرهم بعد خروجهم من المدينة، واشتغلوا هم ويهود خيبر بتدبير المؤامرات للمسلمين، وتحريض القبائل العربية عليهم، وقد توصلوا في الفترة السابقة إلى تدبير مؤامرة الأحزاب فأخفقت، فشرعوا في تدبير مؤامرة أخرى، وأخذوا يعقدون محالفات مع القبائل العربية لتنفيذ هذه المؤامرة، ومن القبائل التي دخلت في مؤامرتهم قبيلة سعد بن بكر بفدك، وهي قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر، فقد أخذت هذه القبيلة تجمع الجيوش لمساعدة هؤلاء اليهود على حرب المسلمين، وكان هذا في مقابل تمر تأخذه من تمر خيبر، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما تفعله، فأرسل إليها سرية أوقعت بها، وغنمت منها غنائم كثيرة.

وكان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق سيد يهود خيبر، وكان هو الذي يحرضهم على حرب المسلمين، وكان يلقب بتاجر أهل الحجاز، لما له من المهارة في التجارة، وكان له ثروة طائلة يقلِّب بها اليهود كما يريد. فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم خمسة من رجال الخزرج فقتلوه غيلة، فولى اليهود مكانه أسير بن رزام، فقال لهم: سأصنع بمحمد ما لم

يصنعه أحد قبلي، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه. ثم أخذ يسعى في حرب النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة في ثلاثين من الأنصار ليستميلوه. فساروا إليه واستمالوه إلى صلح النبي صلى الله عليه وسلم، فأجابهم إلى ما طلبوا. وخرج في ثلاثين من اليهود إلى المدينة ليعقد هذا الصلح، وكان يقوم على أساس أن يسالم النبي صلى الله عليه وسلم فيوليه على يهود خيبر، ولكنه ندم في طريقه على قبول هذا الصلح، لأنه يجعله تابعاً للمسلمين، وأراد الغدر بعبد الله بن رواحة وأصحابه، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله، فقال له: أعذراً يا عدو الله؟ ثم نزل فضربه بالسيف فقتله، وقام إخوانه من المسلمين على باقي اليهود فقتلوهم.

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء اليهود ماضون في عداوتهم سعى إلى عقد صلح الحديبية مع قريش في السنة السادسة من الهجرة، ثم سار إلى يهود خيبر في السنة السابعة منها، وكان هذا في شهر المحرم، فافتتح حصونهم حصناً بعد حصن، وقد سألوه الصلح على أن يخرجوا من أرض خيبر لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فصالحهم على أن يدفع لهم أرضهم ليعملوا فيها بشرط ما يخرج منها من ثمر أو زرع، وقال لهم: إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم.

ثم أرسل بعد فتح خيبر إلى يهود فدك، فصالحوه على أن يحقن دماءهم ويتركوا أموالهم، ولما بلغ يهود تسيماء[1] ما فعله المسلمون

---

(1) قرية على ثماني مراحل من المدينة.

بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم ولم يخرجوا منها، ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهود وادي القُرى، فصالحهم على أن تبقى أرضهم بأيديهم يزرعونها بشطر ما يخرج منها.

وهكذا انتهى أمر يهود الحجاز، وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعله وطناً لهم وللمسلمين، لهم فيه ما لهم، وعليهم فيه ما عليهم، فأبوا إلا أن يكيدوا للمسلمين وهم أصحاب الوطن، وقد تمادوا في كيدهم حتى انتهى بهم إلى هذه النهاية، وكان خيرا لهم لو قبلوا ذلك العرض الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلصوا للعقد الذي أخذه عليهم، وسلكوا في معاملتهم للعرب سياسة جديدة تلائم النهضة التي صاروا إليها بالإسلام، ولم يجمدوا على سياستهم القديمة القائمة على أساس الطمع في العرب، واستغلال ما كانوا فيه من تفرق وتقهقر.

(٥) مكاتبة الملوك والأمراء

كانت هناك دولتان تجاوران المسلمين في هذه الفترة: دولة الفُرس بالشرق، ودولة الروم بالغرب، وكانت هناك إمارات عربية تابعة لهاتين الدولتين في العراق والشام واليمن، وكان بين الدولتين حروب لا تكاد تنقطع، والعرب ببينهما فريق مع الفرس وفريق مع الروم، ولم يكن لهم في هذه الحروب ناقة ولا جمل، وإنما كانوا يساقون إليها سوقاً، وقد انتصر الفرس على الروم في سنة ٦٢١م، واستولوا على الشام ومصر وآسيا الصغرى، وكادوا يستولون على مدينة القسطنطينية، وكان هذا قبل الهجرة إلى المدينة، ثم ظهر هرقل ملك الروم فنهض بهم، وحارب الفرس حتى

هزمهم واستولى على كثير من بلادهم، وقد قامت بينهم موقعة عظيمة في مدينة نينوى سنة ٦٢٦م، فانتصر فيهم هرقل على الفرس انتصاراً عظيما، وقد فر كسرى ملك الفرس إلى عاصمة ملكه، فقام عليه ابنه شيرويه فقتله، وتولى الملك بعده، وعقد صلحاً مع ملك الروم على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه من قبل، وكان عقد الصلح في السنة التي عقد فيها صلح الحديبية.

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ دعوته لهذه الدول التي تتطاحن على الملك، وتصبغ وجه الأرض بالدماء حبا في السيادة، وليس لها من غاية سامية تحارب من أجلها، أو رسالة شريفة تحاول تحقيقها في الأرض، فأراد هو أن يبلغهم هذه الرسالة الشريفة التي تقضي على هذه الحروب الآثمة، وتصير بالعالم إلى عهد كله سلام وأمن، يتعاون الناس فيه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعيش الضعيف فيه آمنا بجانب القوي، فلا طمع ولا تسلط ولا سيادة، ولا غير هذا من أمور الدنيا التي تقيم الحروب فيها، وتكدر صفاء عيشها.

فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتجه هذا الاتجاه في هذه الفترة، وأن يكاتب بدعوته أولئك الملوك والأمراء، قيل له إنهم لا يقرءون الكتاب إلا إذا كان مختوما، فاتخذ له خاتما من فضة، وكان نقشه هكذا:

محمد

رسول

الله

ثلاثة أسطر، كل كلمة في سطر، وقد مكث ذلك الخاتم في يده إلى وفاته، ثم في يد أبي بكر مدة خلافته، ثم في يد عمر مدة خلافته، ثم في يد عثمان إلى أن وقع منه في بئر أريس في السنة التي قتل فيها، وقد التمسوه فيها ثلاثة أيام فلم يجدوه.

(٦) مكاتبة أمراء العرب

كانت إمارات العرب في هذه الفترة موجودة بأطراف الجزيرة العربية، وكان بعضها بالشمال، وبعضها بالجنوب، فأما التي بالشمال فكان منها إمارة دمشق، وكان أميرها الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان منها إمارة بُصرى. وهي في قرية على حدود بلاد العرب والشام، وكانت الإمارتان تابعتين لدولة الروم، وتدينان بالنصرانية مثلهم.

وأما التي بالجنوب فكان منها إمارة البحرين، وكان أميرها المنذر بن ساوي، وكانت تدين بالمجوسية، وهي ديانة الفرس المجاورين لهم، وكان منها إمارة عُمان، وكان يتولى أمرها جيفر وعبد ابنا الجلند، وكان منها إمارة اليمامة، وكان أميرها هو دة بن علي الحنفي.

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر هذا الكتاب مع شجاع بن وهب:

"بسم الله الرحمن الرحيم– من محمد رسول الله إلى الحارث ابن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدَّق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبق ملكك".

فسار شجاع بن وهب بالكتاب إلى أن وصل إلى الحارث ابن أبي شمر، فلما قرأه رمى به الأرض، ثم قال: من ينزع ملكي مني؟ ثم أخذ يعد جيشاً ليرسله إلى حرب المسلمين، وقال لشجاع ابن وهب: أخبر صاحبك بما ترى. ثم أرسل إلى هرقل ملك الروم يستأذنه فيما أراده من الحرب، فمنعه مما أراد، وأمره أن يهيئ له بإيليا[1] ما يلزم لزيارته لها، وكان قد نذر زيارتها بعد انتصاره على الفُرس، فصرف الحارث شجاع بن وهب بالحسنى، ووصله بنفقة وكسوة.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزع منه ملكه كما أخطأ في فهم كتابه، وإنما أراد أن يثبته ويقويه بالإسلام، لأنه لم يكن له إلا ملك صوري، وكان في الحقيقة تابعاً لدولة الروم، فإذا أسلم انقطعت صلته بهم، وصار له ملك حقيقي لا صوري، ولكنه أبى أن يسلم وأراد حرب المسلمين، فكان ما كان من زوال ملك الغساسنة بعد ظهور الإسلام بالشام.

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى أمير بُصرى مع الحارث بن عمير الأزدي: فسار به عمير حتى وصل مؤتة[2] فلقيه شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال له: لعلك من رسل محمد؟ فقال له الحارث: نعم. فأمر به شرحبيل فقتل، مع أنه لا يصح قتل الرسول في شريعة من الشرائع.

---

(1) هي بيت المقدس.

(2) قرية قريبة من الكرك وهي مشارف الشام.

ولقد أساءت إمارتا دمشق وبصرى إلى الإسلام، وآثرنا أن تسيرا في ركب السياسة الرومية، لتسوقهما سوقا في حروبها التي تواصلها في سبيل سيادتها، وليس لهما فيها ناقة ولا جمل، فلم تفهما ما يريده الإسلام من الخير لهما وللإنسانية عامة، وأنه لا يسوقهما إلى حرب آثمة كتلك الحروب التي يساقان إليها، وإنما يريد أن يسالمهما ويبلغهما دعوته، فإن شاءا أسلما، وإن شاءا بقيا على دينهما، وعاشا معه في سلام وأمن.

وقد اضطرنا بفعلهما النبي صلى الله عليه وسلم أن يبادلهما حرباً بحرب، فأرسل في السنة الثامنة من الهجرة سرية بقيادة زيد بن حارثة، لتقتص ممن قتل الحارث بن عمير الأزدي، وكانت تبلغ ثلاثة آلاف رجل، فلما وصلت مؤتة وجدت جموعا تبلغ أضعافها من الروم والعرب الخاضعين لهم، فتغلبوا عليها بكثرتهم، وقتلوا أميرها زيد بن حارثة، فقام بأمرها بعده جعفر بن أبي طالب، فقتلوه أيضاً، فقام بأمرها بعده عبد الله بن رواحة فتقلوه أيضاً، واستشهد منها عدد كثير، وقد قام خالد بن الوليد بعد هذا بأمرها، فأمكنه أن ينقذ من القتل من بقي منها، وقد تضاعف بهذا ذنب الإمارتين للإسلام، فألجأتاه إلى مواصلة حربهما إلى أن يقتص لقتلاه منهما.

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبدا بني الجلندي هذا الكتاب مع عمرو بن العاص:

"بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد رسول الله إلى جيفر وعبدا بني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية

الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما، والسلام".

والناظر في هذا الكتاب يرى فيه تهديداً باستعمال القوة في الدعوة، مع أن الإسلام يقوم على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولعل السبب في هذا أن تلك الإمارات كانت تساعد القبائل العربية المحاربة للمسلمين، لأن بلادهما كانت ذات زرع وخصب. فكانت تمد هذه القبائل بحبوبها وأسلحتها. فتساعدها على المضي في حرب المسلمين. وقد سبق أن قريشا حينما قطعت عنها حبوب اليمامة ساء حالها، وظهر العجز والضعف عليها، مع أن قريشاً كانت أحسن حالا من هذه القبائل، فاعتمادها على تلك الإمارات هو الذي كان يساعدها على المضي في الحرب، ولا فرق في هذا بين الإمارات الجنوبية والإمارات الشمالية، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقف منها موقفا حاسما، فإما أن تكون فله، وإما أن تكون عليه، ليصل إلى أمر حاسم في هذه القبائل التي تعتمد عليها في حربه.

فسار عمرو بن العاص بذلك الكتاب حتى وصل إلى جيفر وعبد ملكي عُمان، فسأله عبد عما يأمر به محمد وينهي عنه، فقال له عمرو: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهي عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم،

وينهي عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

فقال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه! ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدِّق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً. فقال له عمرو: إن أسلم أخوك ملّكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم.

فقال عبد: إن هذا لخُلقٌ حسن.

ثم أوصل عبد عمرا إلى أخيه جيفر، فعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم أخوه عبد، ومكنا عمرا من الصدقات، فمكث بعمان إلى أن توفى النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوي هذا الكتاب مع العلاء بن الحضرمي.

"بسم الله الرحمن الرحيم– سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ذمة الله، وذمة الرسول، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية".

فسار العلاء بهذا الكتاب إلى المنذر حتى وصل إليه، فقال له: يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرنَّ عن الآخرة، إن هذه

المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه؟ ولمن لا يخون ألا تأمنه؟ ولمن لا يخلف ألا تثق به؟ فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه. إذ كل ذلك على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر.

ولقد دعا العلاء فأحسن الدعوة، وسلك إليها أحسن الوسائل، إذ خاطب عقل المنذر، وعرض عليه أحسن ما يدعو الإسلام إليه، فأجابه إلى الإسلام، وبقى على ملكه إلى أن مات قُبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن علي هذا الكتاب مع سليط بن عمرو العامري:

"بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد رسول الله إلى هوذة ابن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُف والحافر، فأسلم تسلم، واجعل لك ما تحت يديك".

فسار سليط بهذا الكتاب حتى وصل إلى هوذة بن علي، فلما قرأه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

"ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله! وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك".

فلم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المساومة، لأنه لا يريد بدعوته ملكا يساوم فيه، وإنما يريد به هداية الناس، فمن شاء قبل هدايته من غير مساومة، ليكون إيمانه خالصا لله تعالى، ولهذا قال حين قرأ كتابه: لو سألني قطعة من الأرضي ما فعلت، باد وباد ما في يديه. وهذا مع أنه أبقى غيره من أمراء العرب على ملكهم بعد إسلامهم، لأنهم أسلموا إسلاماً خالصاً لله تعالى، فلم يلبث هوذة أن مات منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من فتح مكة، وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة.

(٧) مكاتبة ملك الحبشة

اتصل المسلمون بالحبشة قبل الهجرة إلى المدينة، فهاجر كثير منهم إليها، فلما هاجروا إلى المدينة انتقل بعض مهاجري الحبشة إليها، وبقى بعضهم فيها، وكان قد مضى على من بقى فيها إلى هذه الفترة نحو من عشر سنين، وقد سبق أنه كان على الحبشة في ابتداء الهجرة إليها نجاشي يقال له أصحمة، وأنه أكرم أولئك المهاجرين، ولم يجب قريشا إلى طردهم من بلاده.

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب في هذه الفترة إلى ملك الحبشة، كما كتب إلى غيره من الملوك والأمراء، وقد اختلف في

النجاشي الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل إنه النجاشي أصحمة السابق، وقيل إنه نجاشي آخر تولى الحبشة بعده، فمن ذهب إلى أنه هو النجاشي أصحمة ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إليه هذا الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري:

بسم الله الرحمن الرحيم– من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سِلم أنت، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى".

فكتب إليه النجاشي أصحمة هذا الكتاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم– إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً".

ثم قال النجاشي لعمرو: إني أعلم والله أن عيسى بشر به، ولكن أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان، وألين القلوب. وكان مما أرسل إليه عمرو أن يرجع بمن بقى من مهاجري الحبشة، فرجع بهم إلى المدينة، وكان هذا في السنة السابعة من الهجرة.

ومن ذهب إلى أن النجاشي الذي كان على الحبشة في هذه الفترة كان غير النجاشي أصحمة ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إليه هذا الكتاب:

"هذا كتاب من النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون، فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك".

فإذا صح أن النجاشي الذي أرسل إليه هذا الكتاب غير النجاشي السابق، فإنه يكون لفظ الأصحم مقحماً في هذا الكتاب من بعض الرواة، لأن الأصحم هو النجاشي السابق لا هذا النجاشي.

وقد أنكر بعض علماء أوربا ما ورد من إسلام النجاشي، ولعل حجتهم في هذا أنه لم يرد في تاريخ الحبشة، ولكن هذا لا يصلح حجة

لهم، ولا يصح أن يطعن به فيما ورد من إسلام ذلك النجاشي، لأنه كان يكتم إسلامه عن قومه كما أتى في هذه الرواية، فلا يمكن أن يرد إسلامه في تاريخ الحبشة، لأنه كان سراً بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعلنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن بلغته وفاته، فجمع أصحابه وقال لهم: قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة، فقوموا فصلوا، فقال بعضهم: يأمرنا أن نصلي على عِلج من الحبشة! فأنزل الله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) الآية- ١٩٩- من سورة آل عمران.

وقد جاء في كتاب حياة محمد لإيرفنج أن نجاشي الحبشة كان مسيحيا نسطوريا، ومذهب نسطور يقوم على التوحيد وإنكار ألوهية المسيح، ومما جاء عنه في هذا: لا تقولوا مريم أم الله، لأنها من البشر "ويستحيل أن يولد الإله من البشر. ولا شك أن هذا يقرب رواية إسلام النجاشي، كما يقر به ما لقيه المهاجرون إلى الحبشة من الإكراه عنده، ويجوز أنه رأى ما بلغه من الإسلام يوافق ما عليه من النصرانية، فبقى في نصرانيته وهو يرى أنها لا تخالف ما بلغه من الإسلام.

(٨) مكاتبة ملك الروم

كان هرقل على الروم في هذه الفترة، وكان قد انتصر على الفُرس في موقعة نينوى سنة ٦٢٦م، ونذر أن يزور إيليا (بيت المقدس) ماشيا،

فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي:

"بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتول فإن إثم الأكارين[1]. عليك".

فسار دحية بهذا الكتاب حتى وصول إلى أمير بُصرى، فأرسل أمير بصرى معه عدي بن حاتم الطائي ليوصله إلى هرقل، وكان لا يزال بالشام في تلك الزيارة، فقابلاه بحمص، ودفع دحية إليه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فجمع هرقل عظماء الروم وقال لهم: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد؟ وأن يثبت ملككم؟ فتابعوا هذا النبي؟

فلما سمعوا هذا منه حاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فرجعوا إليه وقالوا له: أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابي؟

فلما رأى هرقل ما حصل منهم قال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، ولكنه رد دحية رداً جميلاً.

---

(1) هم الفلاحون.

وإني أرى أن هرقل كان صادقاً في نصيحته لعظماء الروم، ولم يكن يريد بها اختبار شدتهم في دينهم كما أظهر لهم، وقد أيدت الأيام صدق هذه النصيحة، فزال ملك الروم من الشام بعد بضع سنين منها، ثم أخذ المسلمون ينتقصون منه إلى أن استولوا على القسطنطينية عاصمة ملكهم، وتوغلوا في أوربا إلى أن وصلوا إلى أسوار فينا عاصمة النمسا.

ولقد كانت الحوادث الماضية تؤدي أيضاً بهرقل إلى أن يقف هذا الموقف من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان صف الروم في حربهم مع الفرس، وكانت قريش في صف الفرس في هذه الحرب، فكان يرى أن الروم نصارى أهل كتاب، وأنهم أقرب إليه من الفرس، فلما انتصر الفرس على الروم سنة ٦٢١م وكان هذا قبل الهجرة بسنة، حزن المسلمون لانهزام الروم، وفرحت قريش لانتصار الفرس، فأنزل الله تعالى أول سورة الروم لتسلية المسلمين، ووعدهم بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين (ألم، غُلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

فلما نزلت هذه الآيات خرج أبو بكر إلى قريش فقال لهم: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا، فوالله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت.

فقال أبو بكر له: أنت أكذب يا عدو الله، اجعل بيننا أجلا أراهنك عليه، فتراهنا على عشر قلائص، إذا ظهرت فارس على الروم غرمها أبو بكر، وإذا ظهرت الروم على فارس غرمها أبي، وجعلوا الأجل ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل، فقال له: ما هكذا ذكرت، إنما البضع بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر، وmادده في الأجل.

فخرج أبو بكر فلقي أبيا فقال له: لعلك ندمت. فقال أبي: لا، فتعال أزايدك في الخطر، وأماددك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين. فقال أبو بكر: قد فعلت.

فلما أخذ المسلمون يهاجرون إلى المدينة أتى أبي أبا بكر فلزمه، لأنه خاف أن يهاجر إلى المدينة قبل حلول الأجل، وقد قال له: إني أخاف أن تخرج من مكة، فأقم لي ضامناً كفيلاً. فأقام أبو بكر ابنه عبد اله كفيلا عنه.

فلما أراد أبي أن يخرج إلى غزوة أحُد في السنة الثالثة من الهجرة أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، لأنه خاف أن يقتل فيها، وقد قال له: والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلا. فأعطاه كفيلا عنه قبل أن يخرج إلى هذه الغزوة، ثم خرج إليها فأصيب فيها بجراحات مات بها بعد رجوعه إلى مكة.

ثم كان بعد هذا أن تولى هرقل على الروم، فظهر بهم على الفرس،

وانتصر عليهم في موقعة نينوى سنة ٦٢٦م نصرا حاسما، فتحققت بهذا نبوءة القرآن للروم، وكان هذا على يد هرقل الذي ملك عليهم بعد هزيمتهم، وقد أتاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم. وهو يفي بنذره على هذا النصر بزيارة بيت المقدس.

وليس هناك ما يمنع أن يكون هرقل قد علم بما كان من المسلمين من ميلهم إلى صف الروم، وبما كان من نبوءة القرآن بنصرهم على الفرس قبل وقوعه ببضع سنين، ولابد أن يكون لهذا أثر كبير في نفسه، لأنه القائد الذي كسب هذا النصر العظيم، فكيف لا يقدر من تنبأ له؟ وكيف لا يقدر كتابه إليه، وكيف لا يصدق ما تنبأ فيه لدينه، وقد صدقت نبوءته في نصره، ورأى صدقها بعينه.

ولكنه ما رأى ما حصل من عظماء الروم اكتفى بأن رد دحية رداً جميلاً، ثم نهى الحارث بن أبي شمر أن يقوم بحرب المسلمين كما سبق، ولم يفعل ما فعله كسرى ملك الفرس فيما يأتي.

(٩) مكاتبة أمير مصر

كانت مصر في هذه الفترة تابعة لدولة الروم، وكان أميرها يسمى عند العرب باسم المقوقس، وقد أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة:

"بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم

القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون".

فسار حاطب بهذا الكتاب إلى أن أوصله إلى المقوقس بالإسكندرية، فلما قرأه قال لحاطب: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟ فقال له المقوقس: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم.

ثم قال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى.

ثم أجاب النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب:

"لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وتدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقى، وكنت أظن أن يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب، وأهديت إليك بغلة تركبها، والسلام".

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية التي تسري بها النبي صلى الله عليه وسلم، وولدت له ابنه إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري.

وبهذا سلك المقوقس مع النبي صلى الله عليه وسلم مسلك هرقل ملك الروم، فلم يسلم، ولكنه رد رسوله رداً جميلاً، والناس على دين ملوكهم، ولعله فعل هذا بأمر من هرقل.

(١٠) مكاتبة ملك الفرس

كان ملك الفُرس في هذه الفترة يسمى أبرويز، ولقبه كسرى، وهو لقب ملك الفرس، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه هذا الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي:

"بسم الله الرحمن الرحيم– من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس".

فسار عبد الله بن حذافة بهذا الكتاب حتى أوصله إلى كسرى أبرويز، وكان الفرس في هذه الفترة قد أصابهم الوهن والضعف بعد انتصار الروم عليهم، وكان لهذا أثره في ضيق صدر أبرويز، فظن أن النبي صلى الله عليه وسلم ينتهز فرصة ما أصابهم من الهزيمة، وهذا إلى أنه كان في غير صف الفرس من يوم بعثته، فكان في صف العرب حين

حاربوا الفرس في يوم ذي قار[1]، فلما انتصر العرب فيه على الفرس قال: إن هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا. وكان في صف الروم حين حاربوا الفرس، حتى حزن وحزن المسلمون معه حين انتصر الفرس على الروم، ونزل قرآن يعد المسلمين بانتصار الروم عليهم، كما سبق في مكاتبة ملك الروم، وهذا أيضاً إلى بعد ما بين الإسلام والمجوسية، لأن المجوسية تقوم على عبادة النار، والنظر إلى ملوكهم على أنهم آلهة، وإلى ما كان من احتقار الفرس للعرب، واعتقادهم أنهم شعب دون سائر الشعوب.

ولا شك أن هذا كله كان له أثره في نفس كسرى أبرويز حين قرأ ذلك الكتاب، فبلغ به الغضب مبلغه، ومزق الكتاب، وكتب إلى باذان عامله باليمن: أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فليأتياني به. فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أنه مزق كتابه قال: مزق الله ملكه كل ممزق.

ثم إن باذان أرسل قهرمانة بابوية ورجلا آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حينما أتاه كتاب كسرى أبرويز، يأمره أن ينصرف معهما إليه، فلما وصلا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له بابويه: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك

---

(1) اسم لماء قريب من البصرة.

ومهلك قومك، ومخرب بلادك.

وكانا قد دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكرة النظر إليهما، ولما سمع من بابويه ما سبق قال لهما: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا: ربنا– يعنيان كسرى أبرويز– فقال لهما: لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي. ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتياني غدا.

فرجعا إلى الغد، وكان الله قد سلط على كسرى أبرويز ابنه شيرويه فقتله، وأوحي بهذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فدعا بابويه وصاحبه وأخبرهما بقتل أبرويز، فقالا له: هل تدري ما تقول؟! إنا قد نقما عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ فقال لهما: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له إنك أن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء[1].

فخرج بابويه وصاحبه حتى قدما على باذان باليمن، وأخبراه بكلام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهما: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول، ولننظرن ما قد قال: فلئن كان هذا حقا إنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

ولم يلبث باذان أن قدم عليه هذا الكتاب من شيرويه:

---

(1) الأبناء قوم من الفرس سكنوا اليمن.

"أما بعد، فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبا لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم، وتجميرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

فلما قرأ باذان هذا الكتاب قال: إن هذا الرجل لرسول. ثم أسلم وأسلم معه الأنباء من فارس، وأرسل بطاعته وطاعة من معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه أول ثلمة من المسلمين في ملك كسرى، تحقيقا لنبوءة النبي صلى الله عليه وسلم.

(١١) آثار مكاتبة الملوك والأمراء

لقد نجحت هذه المكاتبات في جملتها نجاحا باهراً، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم رسالته العامة إلى دولتي الفرس والروم، وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان أكثر المعمور في ذلك الوقت، واستجاب لدعوته بعض الملوك والأمراء، ومن لم يجب دعوته رد رسله رداً جميلاً، وقد دخل بهذه المكاتبات في دعوته ثلاثة أقطار من جزيرة العرب: وهي قطر عُمان والبحرين واليمن، وهذه الأقطار تمتاز بالخصب والثروة في هذه الجزيرة، فكان استجابتها للنبي صلى الله عليه وسلم نجاحا عظيما للإسلام، وزيادة لها شأنها في قوته وانتشاره.

وقد كان لهذا النجاح العظيم أثر كبير في نفوس من كان يناوئ الإسلام من قبائل العرب، فلابد أنهم أخذوا يوازنون بين موقفهم العدائي للإسلام، وموقف أولئك الملوك والأمراء، وهم أقوى منهم سلطانا،

وأرجح عقلا، وأحسن رأيا، وأحكم سياسة، فأخذوا يحاسبون أنفسهم على ذلك الموقف العدائي، ويعيدون النظر فيما جرته عليهم تلك الحروب من ضياع الأنفس، وضياع الأموال، واضطراب الأحوال، فخفف هذا من عداء بعضهم للإسلام، وأدى ببعضهم إلى الدخول فيه طوعا واختيارا، كما دخل فيه العقلاء من أمرائهم.

وبهذا كانت هذه المكاتبات حركة سياسية مباركة، وكان لها أثر بعيد في جزيرة العرب، يضاهي الأثر الذي حدث من انتهاء أمر اليهود في الحجاز، والقضاء على مؤامراتهم بين قبائل العرب، ويمتاز عليه بأنه حدث بطرق سلمية هادئة، لم ترق فيها دماء، ولم تذهب فيها أموال، وكلاهما تم في هذه الفترة التي تضاعفت بركاتها على الإسلام، ومهدت لما سيظهر في الفترة الآتية من الحوادث الخطيرة في أمر هذا الدين.

ولا شك أن كل هذا كان نتيجة لذلك الصلح المبارك الذي عقد في الحديبية بين المسلمين وقريش، فما كان أبركه من صلح، وما كان أجمل أثره في نجاح أمر الإسلام، وما كان أبعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم في قبوله، على ما كان في بعض شروطه من قسوة على المسلمين.

السياسة الداخلية والخارجية من فتح مكة إلى آخر عهد النبوة

(١) بين المسلمين والمنافقين

تمتد هذه الفترة من فتح مكة إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وكانت وفاته في السنة العاشرة منها، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فيما سبق يعمد إلى مطاولة المنافقين وملاينتهم، فيغضي عن سيئاتهم، ويعفو عن زلاتهم، وقد كانت المصلحة السياسية فيما سبق تقتضي أخذهم بالمطاولة والملاينة، وفي هذا شيء من الضعف الذي يجب أن يكون له حد، ليقلع كل من يظهر الإسلام عن هذه الخصلة المرذولة، ويأخذ بالصراحة في دينه، فإما أن يكون مسلما مخلصا في إيمانه، وإما أن يكون كافرا مخلصا في كفره، ولا يصح أن يقبل في الإسلام ذبذبة النفاق ورياؤه، ولا يصح أن يحسب عليه أشباه الرجال من المنافقين، لأنه دين الرجولة، والشجاعة، والصراحة، والصدق في القول، والإخلاص في العمل.

فآن الأوان في هذه الفترة لأخذ المنافقين بالسياسة التي يجب أن يؤخذوا بها، وقد فتحت فيها مكة وأسلمت قريش التي كان أولئك المنافقون يعملون لها في المدينة، وانتشر الإسلام في جزيرة العرب انتشاراً عظيماً، واندمج الأنصار والمهاجرون في الإسلام اندماجا كاملا، فنسى الأنصار قرابتهم لأولئك المنافقين، ولم يبق هناك داع إلى مراعاتها في معاملتهم، وقد كان من الواجب عليهم أن يراعوا ما آل إليه أمر

الإسلام في هذه الفترة، فيقلعوا عما دأبوا عليه من تدبير الفتن والمؤامرات، بل كان يجب عليهم أن يراعوا ما آل إليه أمر قريش من الإسلام، وقد كانت أشد العرب عداوة له، ولكن عداوة قريش للإسلام كانت عداوة ظاهرة، والعداوة الظاهرة يرجى برؤها، ويتوقع شفاؤها، أما عداوة النفاق فهي عداوة كامنة، فلا يرجى لها برء، ولا يتوقع لها شفاء.

نعم إن هؤلاء المنافقين خففوا شيئاً من أمرهم عقب فتح مكة، واستولى عليهم الضعف واليأس، ولكنهم أخذوا يبحثون عن أعداء آخرين للإسلام يعملون لهم، إلى أن وقع المسلمون في حرب مع نصارى الشام من عرب وروم، فاتجه أولئك المنافقون إليهم، وأخذوا يعملون في المدينة لهم، وتجدد فيهم الأمل بعد اليأس، لأن الروم دولة قوية، وليست كقريش أو غيرها من قبائل العرب.

فلما كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة بين المسلمين ونصارى الشام، أخذ المنافقون يثبطون بعض المسلمين عنها، وكان الناس في زمن عسرة وجدت وشدة حر، فأخذ عبد الله ابن أبي يقول لهم: يغزو محمد بني الأصفر (الروم) مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرونين في الحبال. وأخذ أصحاب عبد الله بن أبي من المنافقين يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخروج معه بأعذار كاذبة، وفي بعضها شيء من السخرية والاستهزاء، فقد ذهب إليه جماعة منهم يقولون له: يا رسول الله، ائذن لنا ولا تفتنا، لأنا لا نأمن نساء بني

الأصفر. وقد بلغ من أمر تدبيرهم في هذه المرة أن انخدع بهم بعض المخلصين من المسلمين، فتخلفوا في أول الأمر عن هذه الغزوة، وقعدوا في المدينة بعد سفر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ندموا على تأخرهم عنه، فشدوا رحالهم إليه حتى لحقوه في الطريق، واستغفروه مما حصل منهم، فعفا عنهم، وقبل الله توبتهم.

فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الغزوة أمره الله أن يضع حداً لأولئك المنافقين، فنزلت سورة التوبة (براءة) تفضح نفاقهم، وتبين ما يجب أن يعاملوا به. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل أعذارهم الكاذبة في التخلف عن هذه الغزوة، لأنه لم يكن يحب أن يشاركوه في القتال، فعاتبه الله على إذنه لهم في الآية- ٣٤- من هذه السورة (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) وكان عبد الله بن أبي قد مات عقب هذه الغزوة، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة لم يطل مثلها، وشيع جنازته حتى وقف على قبره، فنهاه الله تعالى أن يعود إلى مثل هذا مع المنافقين في الآية- ٤٨- من هذه السورة (ولا تُصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

وقد تقررت في هذه السورة السياسة التي يجب أن يؤخذ بها المنافقون، على أنها السياسة الأخيرة في أمرهم، وفي أمر كل منافق يظهر بين المسلمين في المستقبل، وهذا في الآية- ٧٣- من هذه السورة (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس

المصير) قال ابن عباس: أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وإذهاب الرفق عنهم.

وإنما كان جهاد الكفار بالسيف لأنهم يقاتلوننا به، أما المنافقون فيظهرون الإسلام ويخفون الكفر، وإظهار الإسلام يحقن الدم والمال والولد، لأن الله أمر بإجراء الأحكام على الظواهر، فجهاد المنافقين يكون تارة بإظهار الحجة عليهم، وتارة بترك الرفق بهم، وتارة بانتهارهم.

فسلك النبي صلى الله عليه وسلم سياسة الشدة مع المنافقين في هذه الفترة، ومن هذا أنهم كانوا يجتمعون في بيت منافق يهودي يسمى سويلما، فيدبرون فيه الفتن والمؤامرات، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم طلحة بن عُبيد الله في نفر من المسلمين ليحرقوا هذا البيت عليهم، فذهب إليهم فحرقه وهم مجتمعون فيه، فلما رأوا النار اقتحموا من ظهره فأفلتوا.

ومن هذا أنهم كانوا قد بنوا مسجد يضارون به مسجد قباء. وقالوا حين شرعوا في بنائه: نبني مسجدا فنصلي فيه، ولا نصلى خلف محمد، فإن أتانا فيه صلينا معه، وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة، وبطلان الألفة. وكانوا قد أتموا بناء هذا المسجد قُبيل سفره إلى غزوة تبوك، فذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يصلي بهم فيه، فوعدهم أن يصلي بهم فيه إذا رجع من

هذه الغزوة، فلما رجع منها وظهر منهم ما ظهر فيها أمر جماعة من أصحابه فذهبوا إلى هذا المسجد وهدموه.

وقد كان لهذه السياسة أثرها في هذه الفترة بين المنافقين، فقل عددهم في المدينة، وأقلعوا عن تدبير الفتن والمؤامرات، ولاسيما بعد موت عبد الله بن أبي، لأنه كان رئيسهم واليد المحركة لهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاده في مرضه، فطلب منه أن يصلي عليه ويقوم على قبره، ثم أرسل إليه يطلب منه قميصه ليكفن فيه، فأرسل إليه قميصه، وقد قال له عمر بن الخطاب: لم تعطي قميصك الرجس النجس؟ فقال له: إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، فلعل الله يدخل به ألفاً في الإسلام. وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله في مرضه، فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم خلق كثير منهم، ولم يبق على النفاق إلا عدد قليل لم يظهر له أثر بين المسلمين، ولم يعد له ذكر في السياسة الإسلامية الداخلية.

السياسة الخارجية من فتح مكة إلى آخر عهد النبوة

(١) بين المسلمين وقريش

طلب قريش في الفترة السابقة أن يهادنها النبي صلى الله عليه وسلم أربع سنين، فأجابها إلى ما طلبت، ولم يطلب أن تزيد في مدة المهادنة شيئاً، لأنها هي التي ألجأته إلى حربها، والحرب إذا قامت فلكل من المتحاربين أن يمضي فيها حتى يصل إلى غاية تعوض ما أضاع فيها من النفوس والأموال، وهذا إلى أن قبلة المسلمين صارت إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس، وقد فرض عليهم الحج إليها كل سنة، لأنها أول بيت وضع لعبادة الله تعالى، كما قال تعالى في الآية- ٩٦- من سورة آل عمران (إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) وقد كان هذا البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل يعبد فيه الله وحده، فلما قدم العهد بالعرب حولوه إلى عبادة الأصنام والأوثان، فصار الناس يقصدونه من كل فج لعبادتها، وحرم المسلمون من زيارته وإقامة العبادة الصحيحة التي بني من أجلها. مع أنهم أولى به من غيرهم، فمن حقهم بعد أن قامت الحرب بينهم وبين قريش أن يستمروا فيها حتى يصلوا إلى حقهم فيه، ويطهروه من تلك الأوثان والأصنام، ويعيدوه إلى العبادة الصحيحة التي كانت تقام فيه قبل فساد دين العرب، ووقوعهم في دين الشرك، ليكون الحج إليه حجاً صحيحاً يفيد الناس في دينهم ودنياهم، ولا يوقعهم في تلك الجهالات من عبادة الأصنام وما إليها من

البدع الوثنية. ومن حقهم أيضاً أن يستمروا في تلك الحرب حتى تنتهي بخضوع قريش، لأنهم كانوا أرجح العرب عقولا، وأكملهم علماً، فإذا دخلوا في الإسلام تبعهم غيرهم من العرب، وصارت الجزيرة العربية كلها خالصة لهذا الدين، فيصير أهلها جميعاً إخواناً فيه، وتبطل بينهم الحروب والمنازعات، وتتحقق لهم النهضة الدينية والدنيوية التي تراد من هذا الدين.

وقد كانت تلك الهدنة تمتد إلى السنة العاشرة من الهجرة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قد حقق الغاية منها في سنتين، فأخضع فيهما يهود خيبر، وأدخل كثيراً من قبائل العرب وإماراتهم في الإسلام، ووادع كثيراً من القبائل، حتى صارت قريش بمكة في شبه عزلة، وأصبحت أضعف مما كانت يوم أن عقدت تلك الهدنة، فكانت هذه الهدنة سيئة الأثر فيها، حتى إن كثيراً من زعمائها تركوها إلى صفوف المسلمين، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فلم يكن أمام النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذين السنتين في جزيرة العرب إلا قريش، وقد صار في أشد الحاجة إلى إخضاعها، ليتفرغ للحرب الحديدة التي ألجئ إليها في الشام، ووقع بها في عدو قوي من نصارى العرب والروم.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكنه أن ينقض تلك الهدنة، لأن دينه يأبى له نقض العهد، ولا يسوغ له هذا ولو كان فيه مصلحة له، ولا يبيح له أن ينظر إلى المعاهدات على أنها قصاصات من الورق، تمزق في سبيل المصالح الخاصة، وتنقض عند الشعور بالقوة، كما تبيح هذا

السياسة المكيافيلية الآثمة، ولا يتورع عنه من يأخذ بهذه السياسة من الدولة الحديثة.

وهنا يحل القدر العادل هذه المشكلة لمصلحة الإسلام ومصلحة قريش معا، فيحفظ الإسلام من إثم نقض العهد، ويعجل الهداية لقريش من الشرك، ويجعلها تعجل هي بنقض العهد، وذلك أن حلفاءها من بني بكر أرادوا أن يغيروا على بني خزاعة، وهم حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم، كما سبق ذلك في صلح الحديبية، فأعانت قريش بني بكر سراً بالعُدة والرجال، ثم أغاروا على بني خزاعة فقتلوا منهم ما يربو على العشرين.

فأرسل بنو خزاعة وفداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بما فعلت قريش وبنو بكر بهم، وكان على رأس هذا الوفد عمرو بن سالم، فصار حتى وصل إلى المدينة، فوقف على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين المسلمين، فقال:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]

فانصر هناك الله نصراً اعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا[2]

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا

---

(1) الأتلد القديم

(2) الأعتد الحاضر.

هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمرو بن سالم. ثم عرض عنانٌ من السماء[1] فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب. يعني بن خزاعة، ثم قال: والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسي.

ولم تلبث قريش أن تنبهت إلى أنها نقضت عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم، فتيقظت من غفلتها، وشعرت بضعفها، ورأت أن أبناءها قد فر كثير منهم إلى المدينة، ومنهم قائدها المظفر خالد ابن الوليد، ورجلها في السياسة والدهاء عمرو بن العاص، ومن بقى منهم بمكة قد تزعزعت عقيدته في الشرك، وصار قاب قوسين أو أدنى من الإسلام، ثم رأت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تضاعفت قوته، وانضمت إليه إمارات وقبائل كثيرة من العرب، فندمت على نقضها العهد، ورأت أن تبادر فترسل أبا سفيان بن حرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أن يعلم ما حصل منها، ليشد في عقد الصلح، ويزيد في مدته، وهو خداع في السياسة، ولكنه خداع ضعيف آثم، لأن بني خزاعة كانت قد سبقت إلى إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما حصل من قريش، وكان يجب على قريش أن تعلم أن بني خزاعة سيسبقونها إلى هذا، لأن المظلوم يكون أسرع إلى الشكوى من الظالم، وهذا إلى أن ذلك الطلب المفاجئ لزيادة مدته الهدنة يحدث ريبة في النفس، وينبهها إلى أنه يخفى وراءه غاية أخرى.

---

(1) العنان السحاب.

وقد سار أبو سفيان حتى وصل إلى المدينة فنزل على ابنته أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أراد أن يجلس على فراشه فطوته عنه، فقال لها: يا بنية، أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت له: ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس. فقال لها: لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، فعرض عليه ما جاء من أجله فقال له: هل كان من حدث؟ فقال: لا، فقال له: فنحن على مدتنا وصلحنا. فقام أبو سفيان إلى أكابر المهاجرين من قريش، لعلهم يساعدونه على مقصده، فلم يجد منهم معينا، فرجع إلى مكة ولم يصنع شيئاً.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم سلك هنا سياسة أبرع من سياسة أبي سفيان، فقد أراد أن يخدعه ليزيد في مدة الهدنة، فأفسد عليه خداعه، ولم يخبره بنقضهم العهد، فرجع إلى مكة مخدوعا بعد أن أتى خادعا، واستنام هو وقومه إلى ما أراده النبي صلى الله عليه وسلم من إخفاء هذا عنهم، ليأخذهم في غفلتهم، ويضمهم إلى الإسلام الذي تهيأت له نفوسهم، من غير أن يريق دما، أو يقيم حربا، أو يمكن قبيلة من القبائل المتعصبة على الإسلام أن تدخل بينه وبينهم، وقد بلغ من أمرهم أنهم أساءوا الظن بأبي سفيان حين رجع إليهم ولم يصنع شيئاً، فاتهموه بأ،ه خانهم واتبع الإسلام، فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه تهمتهم.

وقد بادر النبي صلى الله عليه وسلم فأعد العُدة سراً للسفر، ولم يخبر أحداً من أصحابه بوجهته إلا أبا بكر، ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة للجهاد، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وغيرهم، ومازال يتجهز ويجمع حتى تجهز بعشرة آلاف من الجند، وقد طوى سره عليهم، وأقام حراسا على الطرق الموصلة إلى مكة، حتى لا يتمكن المنافقون من توصيل أخبار إليها.

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فلما بلغ مر الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار، وكانت قريش قد بلغها خبر هذا الجيش العظيم، ولكنها لم تعلم وجهته. فأرسلت أبا سفيان حكيم بن حزام وبديل ابن ورقاء يلتمسون لها خبره، فساروا حتى أتوا من الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان لصاحبيه: ما هذه؟ لكأنها نيران عرفة. فقال بديل: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك. فرآهم نفر من حرس المسلمين، فأخذوهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهنا أسلم أبو سفيان وهو أكبر زعيم في قريش، وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه عظمة هذا الجيش، فأمر عمه العباس أن يقف به عند حطم الجبل، فجعلت القبائل تمر عليه كتيبة كتيبة، حتى مرت عليه قبيلة الأنصار، وحامل رايتها سعد بن عُبادة، فقال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: للعباس: يا عباس، حبذا يوم الذمار. ثم جاءت كتيبة النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره أبو سفيان

بمقالة سعد، فقال له: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة. ويوم تكسى فيه الكعبة.

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تركز رايته بالحجون[1] وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة، ودخل هو من أعلاها، ونادى بالأمان في أهلها، فكأنما كانوا معه على ميعاد أن يسلموا إذا جاء إليهم، فأسلموا طائعين مختارين، وبقى أفراد منهم على شركهم، فأمهلهم حتى أسلموا من أنفسهم، ثم جمعهم وقال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خير، أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وكان قد أهدر دماء نفر منهم، فلما أسلموا عفا عنهم.

وهكذا كانت سياسته مع قومه سياسة كريمة من أول بعثته إلى أن فتح بلدهم، فصبر عليهم وهو ضعيف بينهم. ثم هاجر من مكة إلى المدينة فقابل قوتهم بمثلها، وحاربهم كما حاربوه، فلما ضعفوا رثى لضعفهم، وصبر عليهم حتى ضمهم إليه من غير أن يراق منهم دم، أو تنتهك حرمة لبلدهم، فلم يسعهم إلا أن يعرفوا له هذا الفضل، ويخلصوا له كمن أخلص له من قبل، ويبذلوا أنفسهم وأموالهم في الجهاد معه، وينقلبوا أعداء لمن كان معهم من القبائل عليه.

---

(1) جبل بمعلاة مكة.

(٢) بين المسلمين وباقي العرب

كانت أكثر القبائل العربية قد دخلت في الإسلام أو حالفته قبل هذه الفترة، ولم يبق منها إلا قبائل قليلة بجوار مكة، كبني هوازن وثقيف، وقد فاجأهم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة بفتح مكة، فلم يمكنهم من مشاركة قريش في الدفاع عنها، ولا من التأثير في رغبة أهلها في المسالمة، والدخول في الإسلام الذي استعدت نفوسهم له، فأكل الغيظ قلوبهم، وأرادوا أن يعاجلوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يرسخ قدمه فيها، ويثبت دينه في نفوس أهلها.

فاجتمع أشراف هذه القبائل من هوازن وثقيف وغيرهم، وأخذوا يتشاورون في أمرهم، فقال بعضهم لبعض: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا. فأجمعوا على قتاله، وجعلوا القيادة لمالك بن عوف، فأمرهم أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، ليجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه. فجعل النساء صفوفا وراء المقاتلة، ثم الإبل، ثم البقر، ثم الغنم.

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يستعدون لحربه خرج إليهم، وكان هذا عقب فتح مكة، وقد انضم إلهي أهل مكة كلهم، حتى من بقى منهم على شركه، فالتقى بهم في حُنين، وهو واد في طريق الطائف إلى جنب ذي المجاز، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، فنصره الله عليهم، وغنم منهم غنائم كثيرة، وقد انهزموا أمامه حتى لحقوا بالطائف، وكانت مدينة حصينة، فسار وراءهم لفتحها، لأنها كانت أهم مدينة في

الحجاز بعد مكة والمدينة، فحاصرهم فيها ثمانية عشر يوما، وكانوا قد أدخلوا معهم قوت سنة، فأمر بأن ينصب عليهم المنجنيق، فنصب ودخل بعض المسلمين تحت دبابتين لينقبوا الحصن، فأرسل أهل الطائف عليهم سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم، فأمر أن تقطع أعنابهم ونخيلهم فقطعت قطعا ذريعا، فلما رأوا هذا نادوه أن دعها لله والرحم، فقال: أدعها لله والرحم. ولما رأى أن تمنعهم شديد استشار نوفل بن معاوية في الذهاب أو المقام. فقال له: يا رسول الله: ثعلب في جحر، إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر المسلمين بالرحيل، وقد طلب منه بعض أصحابه أن يدعو عليهم، فدعا الله أن يهديهم، ويأتي بهم إليه مسلمين.

(٣) وفود العرب إلى المدينة

كانت غزوة حُنين خاتمة حروب النبي صلى الله عليه وسلم مع العرب، إذا انكسرت بعدها شوكة المسلمين، ولم تبق إلا فئات قليلة يسوقها الطيش إلى إشهار السلاح، ثم لا تلبث أن تغمده، فجاءت وفود القبائل إلى المدينة تعلن إسلامها، وتقدم طاعتها للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الوفود وفد هوازن، وقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يزال بمكة. فأعلن إسلام قومهم، وطلبوا منه أن يطلق أسراهم، فأطلقهم ورد إليهم أموالهم، ومنها وفد ثقيف، ووفد بني عبد القيس، ووفد طئ، ووفد كندة. إلى وفود كثيرة من سائر قبائل العرب وبلادهم

وإماراتهم، حتى عم الإسلام العرب جميعاً، ولم يبق بينهم على الشرك إلا فئات قليلة لا تذكر.

(٤) انتهاء العهود بين المسلمين والمشركين

أتت هذه الفترة وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين عهدان: أحدهما عهد عام، وهو ألا يُصد أحد عن زيارة البيت الحرام، وألا يخاف أحد في الأشهر الحُرم. وثانيهما عهد خاص، وهو الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض القبائل العربية إلى آجال محدودة.

وقد فتحت في هذه الفترة مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وطهرت الكعبة من الأصنام التي كان المشركون يحجون إليها، ويزورون الكعبة لعبادتها، وكان للمشركين في حجهم عادات قبيحة مذمومة، كطوافهم عرايا بالكعبة رجالهم ونسائهم، إلى غير هذا من العادات التي لا يمكن الإسلام أن يقرهم عليها بعد استيلائه على مكة، لأنها تضر العرب في دينهم وأخلاقهم، وتقف عائقاً في سبيل نهوضهم، فلا يصح أن يبقى ذلك العهد العام على حاله بعد استيلاء المسلمين على مكة، وبعد أن صاروا مسئولين أمام العالم وأمام التاريخ عن كل ما يجرى فيها، مما لا يبيحه دين ولا خُلق، ولا ترضى به أمة تريد التقدم والنهوض.

وقد انتشر الإسلام في هذه الفترة بين العرب، ولم يبق على الشرك إلا فئات قليلة لا تذكر من قبائل البادية، فصارت بلاد العرب كلها وطناً للإسلام، وله الحق أن يأخذ فيه بما يراه من مصلحته، وهذه الفئات

القليلة الباقية على الشرك لا تخلص له، وهي قبائل من البادية تريد أن تبقى على قديمها من الفوضى، ومن الاعتماد في عيشها على السلب والنهب، فلابد من إخضاعها للنظام الذي يسعى إليه الإسلام، إذ لابد له من القضاء على كل أثر للفوضى في وطنه، حتى يمكنه أن ينهض به. وأن يقر وسائل النظام فيه، وهو إلى هذا قد اشتبك في حرب خارجية مع نصارى العرب والروم بالشام، وستجره هذه الحرب إلى الاشتباك بدولة الروم، كما سيجره المظهر العدائي الذي بدا من كسرى إلى الاشتباك بدولة الفُرس، ولاسيما بعد انتزاعه اليمن منها، ودخول أهله في طاعته.

على أن هذه القبائل التي دخلت في الإسلام بعد فتح مكة أو هادنته كانت متأثرة في هذا بما رأته من انتصارات الإسلام، فلم تلبث أن قلبت له ظهر المجن حين رأت المسلمين يشتبكون بالروم في غزوة تبوك، وكانوا في وقت عسرة، وكانت دولة الروم أقوى دولة في الأرض، فظنوا أن نهاية المسلمين ستكون في هذه الحرب، فنقضوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود. وارتد كثير منهم عن الإسلام[1].

فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة نزلة أوائل سورة التوبة بما يجب عمله في تلك العهود لمن نقضها ولمن وفى بها، وكان هذا عقب غزوة تبوك، فقال تعالى (براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله

(1) كان للروم وأذنابهم من العرب تأثير في ذلك كما فصلته في كتابي– الأزهر وكتاب دراسات قرآنية– في موضوع. نزول سورة براءة في مؤامرة استعمارية للروم بين العرب.

وأن الله مخزي الكافرين، وآذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خيرٌ لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحُرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفورٌ رحيمٌ، وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين، كيف وإن يظهروا عليهم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون).

وهذه الآيات تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يفوا بعهودهم، وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها كيف شاءوا في الأرض، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم

إلى مدتهم، فإذا انقضت مدتهم لم يجدد عهد بعدها لهم، ويزول بهذا حكم ما كان لهم من عهود عامة أو خاصة.

وكان أبو بكر قد سافر في هذه السنة إلى مكة ليحج بالناس، فنزلت هذه الآيات بعد سفره، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب بها ليبلغها للناس يوم الحج الأكبر، فلحق بها علي أبا بكر في الطريق، وسار معه حتى قرأها على الناس في ذلك اليوم، وعرفهم أن من كان له عهد خاص منهم أمهل أربعة أشهر، حتى يتم حجه هذا العام، ويرجع إلى موطنه، ثم بلغهم: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس فيما عمله الإسلام من هذا حجر على العقدية، ولا إكراه للناس على الإسلام، وإنما هو عمل دعا إليه ما سبق من حرب هؤلاء المشركين للمسلمين. وإضمارهم العداوة والبغضاء لدينهم، كما دعا إليه مصلحة الوطن في دينه وأخلاقه وعاداته، وفيما يحيط به من الأعداء الذين يريدون الشر به، فلابد أن يكون أهله كلهم كتلة واحدة أمام أعدائهم، ولا يصح أن يوجد بينهم من يكون ضلعه مع هؤلاء الأعداء.

وقد كان لهذا العمل ثمرته فيهم، فأصبحوا أمة واحدة لها دين واحد تدين به، ولها وطن واحد تخلص له، ولها دولة واحدة تخضع لها، ولم تعد قبائل متفرقة متباغضة، لا يجمع بينها دين ولا وطن ولا دولة، وهذه غاية يهون في سبيلها ذلك العمل، وإن كان فيه شيء من الشدة، لأن من الشدة ما يكون حزما محموداً، وتربية نافعة، كما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحمُ

(٥) قيام بعض الثورات على المسلمين

تم للإسلام في هذه الفترة ما تم من اجتماع العرب عليه، والتفافهم حوله، فغاظ هذا بعض القبائل العربية من قحطان وربيعة، ورأوا أن ظهور الإسلام بالحجاز سيجعل لقبائل مضر السيطرة عليهم، فثار بعض القبائل من قحطان باليمن، وثار بعض القبائل من زبيعة باليمامة، وكان هذا في السنة العاشرة من الهجرة، وكان لنصارى هذين القطرين أثر أيضاً في ثورة هذه القبائل كما سيأتي، ولعلهم أرادوا أن يقوموا في الجنوب بثورة تساعد نصارى الشام والروم في الحرب التي قامت بينهم وبين المسلمين، وقد سبق ما كان من نقضهم لعهودهم عند اشتباك المسلمين بالروم في غزوة تبوك.

وقد قام الأسود العنسي بالثورة الأولى، وكان قد أسلم ثم ارتد وادعى النبوة، فأخذ يشعبذ ويرى الجهال الأعاجيب، ويسبيهم بمنطقه، فلم يلبث أن كاتبه نصارى نجران فسار إليهم، ولهذا دلالته على أن لهم يدا في ثورته، ثم انتقل من نجران مزدوا بما زود به إلى صنعاء فملكها، وصفا له ملك اليمن. واستفحل أمره، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الأبناء، وأمرهم أن يأخذوه إما غيلة أو مصادمة، وأن يستنجدوا رجالا من حمير وهمدان، وكان الأسود قد تغير على قيس بن عبد يغوث، فاجتمع به جماعة ممن كاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم، وتحدثوا معه في قتل الأسود فوافقهم، فاجتمعوا بامرأته وكانت من الأبناء، وكان قد

قتل أباها، فقالت: والله إنه لأبغض الناس إلي، ولكن الحرس محيطون بقصره، فانقبوا عليه البيت. فواعدوها على ذلك، ونقبوا عليه البيت، ودخل عليه شخص اسمه فيروز من الأبناء فقتله وأخذ رأسه، فخار خوار الثور، فابتدر الحرس الباب، فقالت امرأته: هذا النبي يوحى إليه. فلما طلع الفرج أمروا المؤذن فقال: أشهد أن محمدا رسول الله، وأن الأسود كذاب. فانتهى بهذا أمره. وكان قتله قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة، وقيل إنه كان في خلافة أبي بكر.

وقد قام بالثورة الثانية مُسيلمة الكذاب، وكان من بني حنيفة باليمامة، وقد أسلم ثم ارتد وادعى النبوة، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم، وطلب منه أن يشركه في أمره، وكان في يد النبي صلى الله عليه وسلم قطعة من جريد، فقال له: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها. فرجع إلى قومه بني حنيفة باليمامة، فادعى النبوة فيهم، وانضم إليه نصارى بني تغلب وغيرهم من قبائل ربيعة، وقد قتله المسلمون في وقعة اليمامة، وكان هذا في أوائل خلافة أبي بكر.

(٦) بين المسلمين ونصارى العرب والروم

كان هرقل ملك الروم لا يرى حرب المسلمين، ولكن نصارى الشام من العرب والروم كانوا يرون حربهم، وقد منع هرقل الحارث ابن أبي شمر في الفترة السابقة من غزو المدينة، وأمره بمسالمة النبي صلى الله عليه وسلم، فخضع لأمره على كره منه، فلما خضعت جزيرة العرب كلها للمسلمين في هذه الفترة، أكل الحقد قلوب الإمارات العربية

بالشام، وتحفز النصارى فيها من عرب وروم لحرب المسلمين، لأن استيلاء المسلمين على بلاد العرب قطع ما كان لهم بها من صلات سياسية وتجارية، لأنهم كانوا يستعينون ببعض القبائل العربية في حروبهم، وكانت مكة أهم مركز تجاري بينهم وبين اليمن وبلاد الهند.

فازدادت العلاقة سوءاً بين المسلمين ونصارى الشام في هذه الفترة، وقد كان للمسلمين ثارات عندهم بقتلهم رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمير بُصرى، وبمن قتلوه من المسلمين في سرية مؤتة، فكان كل من الفريقين يريد حرب الآخر، ولكن نصارى الشام أرادوا في هذه الفترة أن يسبقوا المسلمين إلى الحرب، لأن المسلمين كانوا قد وقعوا في ضيق وعسر بجدب حصل لهم، وبما توالى من الحروب عليهم، فكتب أولئك النصارى إلى ملك الروم: إن هذا الرجل الذي خرج يدعى النبوة هلك، وأصابتهم سنون شديدة، فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن.

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم تجمعهم لحربه من الأنباط الذين كانوا يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة، فأراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه، وأمر المسلمين بالتجهز لغزوهم. وكان قلما يخرج في غزوة إلا ورى بغيرها ليعمى الأخبار عن العدو. إلا في هذه الغزوة، فإنه أخبر بمقصده فيها، لبعد الشقة، وكثرة العدو، فيأخذ الناس عُدتهم، ويعلموا أنهم قادمون على عدو قوي، فيوطنوا أنفسهم على حربه، ولا يهنوا إذا التقوا به.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ألفاً، ثم سار بهم في السنة التاسعة من الهجرة حتى وصل إلى تبُوك، وهي موضع بين وادي القُرى والشام، بينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة، وقد سميت هذه الغزوة باسمه، فأقام به نحو عشرين ليلة. وكان لمبادرته بهذا الجيش أثرها في صرف أولئك النصارى عما كانوا قد عزموا عليه، فلم يجد منهم أحداً يحاربه، ولم يشأ أن يثير حرباً عليهم هذه المرة، شفقة بالمسلمين فيما كانوا فيه من ضيق وعسر، وقد جمع أصحابه يستشيرهم في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من بلاد الشام، فقال له عمر بن الخطاب: إن كنت أمرت بالسير فسر. فقال له: لو كنت أمرت بالسير لم استشر. فقال عمر: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً. فأخذ برأي عمر، ولم يجاوز تبوك إلى ما بعدها.

وقد أمكن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقد في هذه الغزوة معاهدات صلح مع يوحنا صاحب أيلة[1] وأهل أذرح وجرباء[2] وأكيدر بن عبد الملك أمير دومة الجندل، وهي حصن وقرى من طرف الشام، وكانوا جميعاً نصارى تابعين لدولة الروم، فصالحوه على الجزية.

وهذا كتاب الصلح بينه وبين صاحب أيلة:

---

(1) قرية بين مكة ومصر من بلاد الشام على ساحل البحر.

(2) أذرح وجرباء من بلاد الشام بينهما ثلاثة أميال.

"بسم الله الرحمن الرحيم– هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر. لهم ذمة الله ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يجوز ماله دون نفسه، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.

وهذا كتاب الصلح بينه وبين أهل أذرح وجرباء:

"بسم الله الرحمن الرحيم– هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإخلاص للمسلمين".

ولما كانت السنة العاشرة بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً إلى أبني[١] على رأسه أسامة بن زيد بن حارثة، وقال له: سِر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحاً على أهل أبني، وحرق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقل اللبث فيهم، وخذ الإدلاء، وقدم العيون والطلائع معك.

وكان أسامة شاباً لا يتجاوز السابعة عشرة، وكان في جيشه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار، وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أن يدرب شبان المسلمين على قيادة

---

(١) محل قريب من مؤتة.

الجيوش، وأن يعلم المسلمين حسن الطاعة، حتى يتواضع كبيرهم لصغيرهم، ولا يكون للتفاوت في السن تأثير عندهم، لأن المرء لا يمتاز بسنه، وإنما يمتاز بأصغريه: قلبه ولسانه. وهذه سياسة فيها من قصد التجديد ما فيها، وقد خفيت حكمتها على بعض أهل الجمود، فقال بعضهم مقالة في انتقادها، فغضب النبي غضباً شديداً، وخرج فقال: أما بعد– أيها الناس– فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليق بها، وإن كان لمن أحب الناس إليّ. وإنهما لمظنة لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أدركه الموت قبل أن يسير هذا الجيش إلى الشام، فسار إليها في أول خلافة أبي بكر.

(٧) بين المسلمين والفرس

لم يشأ النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إلى حرب الفُرس، بعد أن مزق ملكهم كتابة، وأمر عامله على اليمن أن يبعث إليه رجلين جلدين ليأتياه به، ولا شك أن هذا إيذان بالحرب، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم آثر أن يشتغل بحرب نصارى الشام، لأنهم بدأوا بحربه، وكانوا تابعين لدولة الروم، فلم يكن من حسن السياسة الاشتغال بحرب تينك الدولتين معاً، ولا تزال بلاد العرب حديثة عهد بالإسلام، ولا تزال في حاجة إلى فترة من الزمن يستقر فيها أمره، ويستعد فيها العرب لحرب تينك الدولتين القويتين.

وكانت دولة الفرس في هذه الفترة قد اضطربت أحوالها، لأن شيرويه الذي تولى عليها بعد أن قتل أباه أبرويز كان رديء المزاج، كثير الأمراض، صغير الخلق، وكان له سبعة عشر أخاً كأنهم عوالي الرماح، قد كملوا في حسن الخلق والأدب والأخلاق، فقتلهم جميعاً ثم ندم على قتلهم، وابتلى بالأسقام، فلم يلتذ بشيء في حياته، وجزع جزعاً شديداً، حتى حرم نوم الليل، وصار يبكي ليلا ونهاراً، ويرمي التاج عن رأسه. ولم يزل على هذا الحال حتى هلك بعد ثمانية أشهر من ولايته، فقام بعده ابنه أردشير، وكان ابن سبع سنين، فحضنه بعض رجال الفرس، وكان شهريران من قواد الفرس مشتغلا بحرب الروم، فسار بعسكره واغتصب الملك من أردشير بعد أن مكث في الملك سنة وستة أشهر، ولم يكن شهريران من أهل بيت المملكة، فلم يمهله الفرس بل ثاروا عليه وقتلوه، وولوا عليهم بوران بنت أبرويز، ولم تزل دولة الفرس في هذا الاضطراب إلى أن قضى المسلمون عليها في عهد الخلفاء الراشدين.

فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك الفرس في هذه الفتن، ليتفرغ لحرب نصارى الشام، حتى يستقر الإسلام في بلاد العرب، ويفعل الله بعد هذا ما يشاء.

(٨) بين المسلمين والحبشة

رعى الإسلام للحبشة ما كان من إكرامها لجوار المسلمين بها إلى هذه الفترة، ولكن يظهر أن أهله تأثروا بالحرب التي قامت بين المسلمين

ونصارى الشام، فأرادوا أن يناوشوا المسلمين، ليساعدوا نصارى الشام، لأنهم نصارى مثلهم.

ولعل هذا يفسر ما قام به جماعة من الحبشة من محاولة الإغارة بسفنهم على جُدة[1] وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة، مع أنهم لم يسبق لهم مثل هذه المحاولة، وقد مكث مهاجرة المسلمين بينهم إلى السنة السابعة من الهجرة، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم علقمة بن مجزر في ثلثمائة رجل، فلما وصلوا إلى جدة نزلوا في السفن ليدركوهم، وكانوا متحصنين في جزيرة بالبحر، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا أمامهم، ولم يلحقهم المسلمون بل رجعوا إلى جدة، ولم يحصل من الحبشة بعد هذا مثل هذه المحاولة.

وبهذا انتهى عهد النبوة في سياسته الداخلية والخارجية، وقد سار من أوله إلى آخره على سياسة كريمة في الداخل والخارج، فلا استبداد في الداخل بالاستئثار بالرأي دون المسلمين. ولا تفريق في المعاملة بين الطبقات، لأنه جاء بالمساواة التامة بين الناس على اختلاف طبقاتهم، ولا عدوان في الخارج على غير المعتدي، وإنما هو إيثار السلام على الحرب، لأن الإسلام دين السلام، ودين الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(1) مدينة بالحجاز على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر).

وبهذا أيضاً كانت الدولة الإسلامية في هذا العهد مثلا عاليا للدولة المثالية، مثلا لم يسبق له نظير قبله، ولم يأت له نظير بعده، ولو أتى له نظير في مستقبلنا لما وجد له في غيره قدوة.

الدولة الإسلامية في عهد النبوة

الدولة الإسلامية في عهد النبوة

(١) رعايا الدولة

الدولة هي الحكومة التي تقوم في طائفة من الناس لتدبير مصالحهم الداخلية والخارجية، ولم يكن للعرب قبل الإسلام حكومة ترى هذه المصالح، وإنما كانوا قبائل متفرقة متعادية، يظلم قويهم ضعيفهم، ويعتدي بعضهم على بعض، فكان للقوة لا للدولة حكمها فيهم، وكان للطغيان لا للقانون أمره في الفصل بينهم، فلما جاء الإسلام أنشأ لهم هذه الدولة، وجمع ما تفرق من كلمتهم، فجعلهم أمة واحدة تخضع لحكومته، وجعل لهم شريعة واحدة يخضعون لحكمها، فزال من بينهم حكم القوة، وبطل من بينهم حكم الطغيان، وساد النظام في الحواضر والبوادي، وذهبت تلك الجاهلية بما كان فيها من فوضى وآثام.

وقد جاءت هذه الدولة عرضاً لا قصداً، لأن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً، ولم يبعثه ملكا ولا أميراً، وقد كان من الرسل ملوك كداود وسليمان عليهما السلام، ولكن الله اختار محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً فقط، لتكون رسالته خالصة للدين الذي جعله خاتم الأديان، فتتفق عليه الكلمة بعده، ولا يتخاصم فيه أتباعه، لأن الملك يثير الطمع في الناس ويحدث التنازع بينهم، وهذا إلى أنه يكون إرثا يتناقله الخلف عن السلف. ويستأثر به قوم دون قوم، وإلى أن الله تعالى أراد ألا يكون للنبي صلى الله عليه وسلم شيء من مظاهر الملك، ليكون

مثلا لأتباعه في التواضع للناس، والتعفف عن تلك المظاهر. فيكون أمر الإسلام للمسلمين جميعاً، ولا يختص به قوم دون قوم منهم، ولا يقع بينهم تنازع على الحكم والملك، ولا يطلبوه لمظاهره ومغانمه، بل ليكونوا خدام الأمة، ورعاة مصالحها العامة والخاصة.

وكانت الدولة الإسلامية في آخر عهد النبوة تشمل الجزيرة العربية من أقصاها شمالا إلى أقصاها جنوباً، ومن أقصاها شرقاً إلى أقصاها غربا، وكان يدخل فيها أيضاً بعض من أطراف الشام المجاورة لبلاد العرب، وكانت البلاد التي تشملها تنقسم إلى قسمين:

١- بلاد دخلت في الإسلام بحق الفتح، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يولي عليها العمال من قِبُله، كما ولى عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها، وكانت هذه البلاد لا تكاد تجاوز الحجاز ونجداً.

٢- بلاد دخلت في حكم الإسلام بطريق الصلح، وهي البلاد التي كان لها ملك أو أمير قبل الإسلام، وقد أبقى النبي صلى الله عليه وسلم لهذه البلاد ملوكها وأمراءها، لأنه لم يبعث بدينه ليسلب من الملوك والأمراء ملكهم، وإنما بعث به هادياً لهم، فمن أسلم منهم بقى له ملكه، ولم يطالبه الإسلام إلا بتنفيذ شرائعه، ومن صالح على دفع الجزية بقى له ملكه أيضاً، ولا يطالبه الإسلام إلا بدفع الجزية.

وهذه البلاد كانت تشمل ما يأتي من الممالك والإمارات (١) مملكة البحرين، وكان ملكها مسلماً، وهو المنذر بن ساوي (٢) مملكة

عُمان، وكان عليها ملكان مسلمان، وهما جيفر وعبد ابنا الجلندي (٣) إمارة تيماء، وكان أميرها يهودياً (٤) إمارة أيلة، وكان أميرها نصرانياً (٥) إمارة دومة الجندل، وكان أميرها نصرانياً (٦) إمارة نجران، وكانت إمارة نصرانية (٧) إمارات اليمن، وكانت إمارات يحكمها أمراء مسلمون من الحميريين، ما عدا إمارة صنعاء، فإنه كان يحكمها باذان ابن ساسان من الفُرس، وكان مسلماً أيضاً، وقد مات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقام بعده ابنه شهر، فمكث أميراً على صنعاء إلى غلب عليها الأسود العنسي فقتله، وقد قتل الأسود العنسي قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة، فلما قتل تولى صنعاء خالد بن سعيد الأموي، فذهبت بولايته هذه الإمارة.

(٢) نظام الأديان في الدولة

وجدت أديان أربعة في الدولة الإسلامية على عهد النبوة:

(١) الإسلام، وكان هو دين هذه الدولة، لأنه كان دين جمهور أهلها، ومن حق هذا الجمهور في كل دولة قديمة أو حديثة أن يكون دينه هو دين دولته، لأنه هو الذي يقوم بالقسط الأكبر مما يلزم لها من النفوس والأموال، فيقدم لها يلزمها من الجنود، ويقدم لها ما يلزم لنفقاتها من الأموال، فيجب أن ترعى له في نظير هذا أهم شيء عنده وهو دينه، لأن فيه سعادته في دنياه وأخراه، فإذا اتخذته شعاراً لها بذل أهله نفوسهم وأموالهم لها عن إخلاص وحسن اعتقاد، ودانوا بطاعتها في باطنهم قبل ظاهرهم، فتنتظم أمورها بحسن

الإخلاص والطاعة، وتتضافر جهود الأمة والحكومة في النهوض بالوطن.

(٢) اليهودية، وكانت دينا لبعض أهل اليمن في الجنوب ولبعض أهل الشام في الشمال.

(٣) النصرانية، وكانت دينا لبعض أهل اليمن في الجنوب، ولبعض أهل الشام في الشمال.

(٤) المجوسية، وكانت دينا لبعض أهل البحرين في الجنوب.

وكانت هذه الأديان الثلاثة تعامل في هذه الدولة معاملة عادلة، وكان أهلها يتمتعون بالحقوق الوطنية التي يتمتع بها المسلمون، فكان لهم فيها ما للمسلمين، وعليهم فيها ما عليهم، وهذا هو أصل المساواة الذي جاء به الإسلام قبل أن يجيء به غيره، وكذلك جعل الإسلام أهل هذه الأديان إخوة للمسلمين في هذا الوطن، يواذونهم كما يواذون إخوانهم من المسلمين، ويحرم عليهم أن يؤذوهم بالفعل أو بالقول، حتى لقد ذهب بعض الفقهاء إلى تحريم أن يقال للواحد منهم- يا كافر- إذا كان هذا يؤذيه، وكل هذا يدخل في قوله تعالى في الآية- ٨- من سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين).

وقد أباح الإسلام لأهل هذه الأديان أن يقوموا بفرائضهم، وأن يظهروا بينه بعقائدهم، وأعطى لهم الحق في أن يحكموا بشرائعهم في

أحوالهم الخاصة بهم، فأتى الإسلام في هذا بحرية الدين والاعتقاد قبل أن يأتي به غيره، وقد عاملهم في الأحكام العامة كما يعامل المسلمين، لأن نظام الدولة يقضي بأن يعاملوا فيها مثلهم، ليشعروا بأن لهم دولة واحدة تجمعهم، ووطناً واحداً يؤلف بينهم، وشريعة عامة واحدة يؤخذون بأحكامها في باب المعاملات والجنايات وما إليها، ليكونوا فيها سواء في غنمها وغرمها[١].

ولم يأخذ الإسلام من أهل هذه الأديان إلا مقدارا قليلا من المال سماه جزية، وهو لا يذكر بجانب الزكاة التي يأخذها من المسلمين، وهو لا يأخذ هذه الجزية منهم عقوبة لهم، بل يأخذها في نظير ما يتمتعون به في الدولة من المصالح العامة والخاصة، ومقدارها دينار يؤخذ في السنة عن كل ذكر حر بالغ، فلا تؤخذ من الأنثى ولا من الرقيق ولا من الصبي، وقد اختلف العلماء في جواز زيادتها على الدينار، فذهب بعضهم إلى أنه لا تجوز الزيادة عليه كما لا يجوز النقص عنه، وذهب بعضهم إلى أن الدينار حد القلة، فتجوز الزيادة عليه، وذهب بعضهم إلى أنه لا توقيف في الجزية لا في القلة ولا في الكثرة، فوكل هذا إلى نظر الإمام، ليأخذ فيه بحسب المصلحة.

ولا شك أن هذه الجزية لا تذكر بجانب الزكاة التي فرضت على المسلمين، لأنها تؤخذ من كل مسلم، ولا تقدر بدينار كما تقدر الجزية،

(١) هذا رأي بعض الفقهاء، ومنهم من يجيز لهم إتباع أحكامهم في الجنايات وغيرها– أنظر ص ٢٩، ١٤١، ١٤٢ من القضاء في الإسلام لعطية مصطفى مشرفة.

بل تقدر بنسب مختلفة بحسب ما يؤخذ منه الزكاة، فلا تقف عند حد في الزيادة، بل تأخذ في الصعود كلما أخذ المال في الصعود، وهي تؤخذ من النعم والحبوب والثمار والذهب والفضة والركاز التجارة، ثم لا يقتصر الأمر على هذه الزكاة المفروضة. بل هناك صدقات كثيرة تؤخذ من المسلمين على وجه الندب.

وقد راعى الإسلام في هذا الفرق الكبير بين الزكاة والجزية أن المسلمين يأخذون من الزكاة نصيباً كبيراً لفقرائهم، وما إلى هذا من أمورهم الخاصة، فلا يبقى منها بعد هذا إلا مقدار قليل ينفق في المصالح العامة للدولة، وهو يضاهي ما يؤخذ من غير المسلمين من الجزية.

وإنما خُص ما يؤخذ من المسلمين باسم الزكاة، وخص ما يؤخذ من غيرهم باسم الجزية، لأن الزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي عبادة من عباداته الخمس، فأطلق عليها اسم الزكاة أو الصدقة، لتبعد عن أن تكون ضريبة كالضرائب التي تتقاضاها الدول من رعاياها، وتكون فرضاً دينياً لا يرى فيها أحد غرماً، بل يؤديها خالصاً لله تعالى، ولا يماطل فيها ولا يتهرب منها، كما يتهرب الناس من الضرائب التي تفرض عليهم، وهذا إلى أن أهم مصرف فيها مصرف الفقراء والمساكين، وهو يعطيها اسم الزكاة والصدقة أيضاً، وهما اسمان محبوبان يرغبان في أداء هذا الفرض، لأن الزكاة فيها معنى النمو والتطهير للمال، والصدقة فيها قصد الثواب من الله تعالى.

أما الجزية فهي في اللغة خراج الأرض، فأخذت الجزية الذمي منه، وليس فيها ما يشعر بشيء آخر غير هذا المعنى، وقال الجوهري: الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة، وهي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذمة، وهي فعلة من الجزاء، كأنها جزت عن قتله. ولو قال الجوهري كأنها جزت عما يجب عليه في نظير ما يجب له علينا، لكان هذا أليق برسالة الإسلام، لأن الإسلام دين يدعو الناس بالتي هي أحسن، فيأخذهم بالسلم لا القتل، أما قوله تعالى في الآية- ٩- من سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فقد ورد في قوم حاربوا المسلمين، وهم نصارى الشام من العرب والروم، فأمر المسلمون بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية وهم خاضعون لهم، فلا يفيد قوله (وهم صاغرون) إلا معنى الخضوع وإيثار السلم على الحرب، وليس فيه شيء من الذلة والمهانة، لأن الإسلام لا يقصد إذلال الناس ولا إهانتهم، وإنما يقصد إرشادهم وهدايتهم.

على أن الإسلام قد راعى حكم اللغة في إطلاق لفظ الجزية على ما يؤخذ من أهل الذمة، وليس فيه ما يوجب إطلاق لفظها عليه من جهة الدين، ولهذا طلب نصارى تغلب من عمر بن الخطاب أن يضاعف ما يأخذه منهم على أن يسميه صدقة لا جزية، فأجابهم إلى ما طلبوا، ولم ير حرجاً في إطلاق لفظ الصدقة على ما يؤخذ منهم. لأن الإسلام أرقى من أن يجمد في سياسته على الألفاظ، ما دامت الحقائق هي الحقائق، وما

دام تغيير اللفظ لا يغير شيئاً من أمرها، وقد يفيد في تهوين تلك الحقائق في اللفظ الذي يراد لها، وقد اختلف الفقهاء فيمن تؤخذ منه الجزية من أهل الأديان، فذهب الشافعي إلى أنها لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس عرباً كانوا أو عجماً، وحجته في هذا آية التوبة السابقة، وما عمله النبي صلى الله عليه وسلم من أخذ الجزية من مجوس البحرين، وذهب مالك والأوزاعي وغيرهما إلى أنها تؤخذ من كل كافر كتابي أو غير كتابي عربي أو غير عربي، وهذا القول أرجح من القول الأول، لأنا إذا لم نقبل الجزية من غير الكتابي والمجوسي فقد أكرهناه على الإسلام، وقد قال الله تعالى في الآية– ٢٥١– من سورة البقرة (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) ولأن المجوس ليسوا أهل كتاب، لأن أهل الكتاب في القرآن هم اليهود والنصارى، والمجوس يعبدون النار، ولا فرق بين عبادة النار وغيرها مما يعبده المشركون، فلنأخذ الجزية منهم جميعاً، فإن قيل إن المجوس لهم شبهة كتاب، لأنهم كانوا لهم نبي قديم، أجيب بأن كل أمة بعث فيها نبي من الأنبياء، كما قال تعالى في الآية– ٢٤– من سورة فاطر (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير).

ولا شك أن هذه الحرية الدينية مفخرة من مفاخر الإسلام، وهي الحرية التي يعيش في ظلالها أهل الأديان آمنين على أديانهم، فلا يكرمهم أحد على تركها، ولا يؤذيهم أحد بالطعن والسب فيهم، لأن الإسلام دين كريم لا يأخذ الناس بالسب والشتم، وقد نهى المسلمين

عن هذا في الآية- ١٠٨- من سورة الأنعام (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) على أن الإسلام مع هذا أباح لأهل هذه الأديان أن يجادلونا في الدين، ولكن في حدود الأدب وإرادة الوصول إلى الحق، كما قال تعالى في الآية- ٤٦- من سورة العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون).

وقد أتت على المسلمين عصور مظلمة قامت فيها حروب بينهم وبين أهل الأديان، فأنستهم بعض ما يجب عليهم لأهل الذمة بينهم، ولكن مثل هذا لا يمكن أن يحسب على الإسلام، وقد يكون لأهل الذمة سبب فيه بإظهارهم الميل إلى من يحارب المسلمين من أهل دينهم، ولا يمكن أن يحتج على جنوح الإسلام للشدة مع أهل الأديان بآيات القتال، لأنها وردت فيمن يقاتله من أهل الأديان، فلا يدخل فيهم من يجمعهم والمسلمين ذمة واحدة ووطن واحد.

نعم قد وردت أحاديث لا توافق ما سبق تقريره في معاملة أهل الأديان في داخل دولة الإسلام، مثل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه "لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه" ولكن هذا الحديث وأمثاله لم يتفق الفقهاء على الأخذ به، فلم يعمل به ابن عباس وطائفة من الشافعية، وجوزوا ابتداء اليهود

والنصارى وغيرهم بالسلام، وهذا هو الأرجح، بل هو الذي يجب الأخذ به، لأن مثل ما رواه أبو هريرة يضر الإسلام ولا ينفعه، وأخذ الناس بالحسنى يرغبهم فيه، ويقوم برهاناً على حسن آدابه، ودليلا على كرم أخلاقه، ولا يصح أن نبتدئ غيرنا بالسيئة مع أن الله قد أمرنا أن ندفع السيئة بالحسنة، فقال تعالى في الآية- ٣٤- من سورة فُصلت (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم).

وقد كان هناك فريق آخر عاشر المسلمين في عهد النبوة ولم يكن من اليهود والنصارى والمجوس، بل كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم ظاهرهم، ووكل باطنهم إلى الله تعالى، واكتفى بذم نفاقهم على العموم، وبعدم الاعتماد عليهم في أمور الدولة، لأنهم لا يخلصون لها، فإذا تولى بعضهم أمراً فيها أساء فيه، ولم يحسن القيام به، وقد كان بعضهم يرتكب بعض ما يدل على نفاقه ثم ينكره، فيهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فينهاه عن عذا ويقول له "فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟" والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه منافق، ولكن لا يرضى بقتله ما دام ينكر نفاقه، ولا يصل به الأمر إلى قتال المسلمين، والإسلام لا يقاتل إلا من يقاتله.

(٣) نظام الشعوب في الدولة

كانت الدولة الإسلامية في عهد النبوة تشمل أفراداً من الفُرس والروم والحبشة واليهود، ولكنهم كانوا قلة لا تذكر بجانب العرب الذي دخلوا جميعاً في الإسلام، فكان ممن دخل في الإسلام من الفرس سلمان الفارسي وفُرس اليمن الذين كان يطلق عليهم لفظ الأبناء، وكان ممن دخل في الإسلام من الروم صُهيب الرومي وبعض من الروم في الشام، وكان ممن دخل في الإسلام من الحبشة بلال بن رباح وغيره من موالي الحبشة في الإسلام، وكان ممن دخل في الإسلام من اليهود عبد الله بن سلام وغيره من يهود العرب.

وكان الإسلام ينظر إلى هذه الشعوب كلها على السواء، ولا يميز العرب الذين يؤلفون الكثرة الغالبة في الدولة بشيء، لأن الله تعالى لم يختر نبيه صلى الله عليه وسلم من العرب ليؤلف باسمهم دولة في الأرض، ولا ليجعلهم سادة على الشعوب، بل لينشر دينه في الناس كافة، فإذا قامت له دولة في الأرض استوى فيها الناس كافة، فلا يمتاز فيها عربي على فارسي، ولا يمتاز فيها فارسي على رومي، ولا يكون فيها أثر لعصبية من العصبيات. بل يكون التفاضل فيها بالعمل الصالح، كما قال تعالى في الآية– ١٣– من سورة الحجرات (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: الناس سواسية

كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى.

وهذا هو أصل المساواة بين الشعوب، وقد جاء به الإسلام كما جاء فيما سبق بأصل المساواة بين الأديان، فجعل الشعوب كلها سواء في الحقوق الوطنية، كما جعل أهل الأديان كلهم سواء في هذه الحقوق، لأن سياسته إنسانية ترمي إلى خير الشعوب كلها، وتريد هدايتهم وإرشادهم، ولا ترمي إلى تسليط بعض الشعوب على بعض، كما ترمي السياسة القومية التي تأخذ بها الدول الكبرى في عصرنا، وتزعم كذباً أنها تقصد إلى خير الإنسانية، وأنها تحارب استعباد الناس بعضهم لبعض، مع أنها سياسة قائمة على التعصبات القومية التي توقع أهلها بعضهم في بعض، وعلى التعصبات الوطنية التي توقع أهلها بعضهم في بعض، وعلى التعصبات الدينية التي تفرق بين أهل الغرب وأهل الشرق، وإنما هي مزاعم تخدع بها الشعوب الضعيفة، لتقدمها ضحايا في حروبها، وتؤثر بها في عقول المخدوعين بها من أبنائها.

والإسلام ينادي بها سياسة إنسانية صريحة، لا يخدع بها شعباً من الشعوب، ولا يطمع بها في ثروة أمة من الأمم، وإنما يريد الهداية والإرشاد، واستخلاص حقوق الضعفاء من الأقوياء، والعدل الشامل للناس جميعاً، والحكم الذي لا يفرق بين دين ودين، ولا بين شعب وشعب، ولا بين شرق وغرب، ولا يحارب شعباً في قوميته أو لغته، بل يترك لكل شعب مميزاته من لغة ونحوها، ولا يهمه شيء من أمرها، لأن

رسالته دينية لا قومية ولا لغوية، فلا يهمه إلا الدعوة للدين، ولا تهمه الناحية القومية واللغوية.

ولهذا أباح الإسلام لأفراد الشعوب أن يصلوا إلى أسمى المناصب في دولته. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم كما ينظر إلى قومه من العرب، فقرب سلمان الفارسي منه حتى كان يقول فيه: سلمان منا أهل البيت. وقرب صُهيباً الرومي حتى كان لا يفارقه في أمر من أموره في السلم والحرب، وقرب بلال ابن رباح الحبشي حتى جعله مؤذنه في الصلاة، وجعله خازن بيت المال، وهو منصب يضاهي منصب وزير المالية في الحكومات الحاضرة.

وقد كانت العربية لغة الدولة في هذا العهد، ولكنها لم تفرض فيه على غير العرب من الشعوب، بل أباح الإسلام لمن يدخل فيه من هذه الشعوب أن يؤدي فرائضه من الصلاة ونحوها بلغته، وهذا هو مذهب الفقهاء الذين فرقوا بين وظيفة الدين واللغة، فلم يرضوا أن يستخدم الإسلام في فرض العربية على غير أهلها، ولا أن تقف اللغة عقبة في سبيل من يريد أن يعتنقه، لأن الدين اعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، فتستوي فيه اللغات كلها، ولا تتعين فيه لغة منها، ولا يخفى أن تكليف شعوب الأرض كلها بتأدية فرائضهم بلغة واحدة فيه من العنت ما فيه، والإسلام دين يُسر لا عُسر، ولا يرضى أن يقف مثل هذا في سبيل الاهتداء به.

(٤) نظام الطبقات في الدولة

ينقسم الناس من جهة الثروة إلى ثلاث طبقات: الطبقة الفقيرة، والطبقة المتوسطة، والطبقة الغنية، وقد ذهبت بعض المذاهب الاشتراكية إلى وجوب التسوية بين الناس في الثروة، فأنكرت حق الملك والإرث، وجعلت الحق فيهما للدولة لتوزيع الثروة بين الناس على السواء، ولكن الإسلام دين وسط لا يرى الغلو فيما يأتي به من وجوه الإصلاح، كما قال تعالى في الآية- ٤٣- من سورة البقرة (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) فلا يمكنه أن ينكر حق الملك والإرث، لأنهما من الحقوق الطبيعية للإنسان، ولابد منهما لتمام نظام العمران.

ولا شك أن مشكلة الفقر هي التي يجب حلها في نظام الطبقات، لأنه لا يصح أن يعيش الغني في رغد الحياة ورفاهيتها، ثم يعيش الفقير بجانبه لا يجد ما يسد به قوته وقوت عياله، لأن هذا من الظلم الذي لا يصح السكوت عليه، ولا يجوز لحكومة أن تترك أمره للأفراد، وهم من طبعهم الشُّح والبخل، بل هم يطمعون فيما في أيدي الفقير، فلو تركوا لأنفسهم لم يعطوه شيئاً، ولتركوه في فقره إلى أن يحوجوه إلى ذل السؤال، وفي هذا من العار على الأمة ما فيه، والحكومة مسئولة عن كل عارٍ يلحق الأمة، ومطالبة بالعمل على إزالته.

وقد عالج الإسلام الفقر بأن جعل للفقراء نصيباً في أموال الأغنياء، ثم جعله فرضاً دينياً وركناً من أركانه الخمس، بل جعله عبادة مثل الصلاة والصوم والحج، وسماه زكاة إشعاراً بأنه يزكي أموالهم ويطهرها، فلم

يجعله تبرعاً يترك لإرادة الأغنياء، ويكون فيه منّة لهم على الفقراء، أو شعور بالعزة عند الإعطاء، لأن في هذا ما يؤلم الفقراء، ويشعرهم بالذلة عند الأخذ.

ثم جعل هذا الحق في أموال الأغنياء نسبياً يصعد مع الثروة إذا صعدت، وهو يبلغ في بعض الأموال إلى نسبة العُشر، ولم يقصره على صنف من الأموال، بل جعله في الماشية والحبوب والثمار والذهب والفضة وعروض التجارة، ليكون للفقراء هذا الحق في كل ثروة، ولا يفلت منه غني من الأغنياء، وقد راعى الإسلام في جعل هذا الحق نسبياً أن نفقة المعيشة تتبع ثروة الأمة صعوداً وهبوطاً، فيجب أن يكون حق الفقراء تابعاً لنسبة ثروة الأمة، ليمكنهم أن يعيشوا بجانب الأغنياء عيشة تليق بكرامة الإنسان، ولا ينزلوا فيها إلى مرتبة لا تليق بكرامة أمتهم.

ثم جعل أخذ هذا الحق من عمل الحكومة، بل جعله أهم عمل في أعمالها، فهي التي تقوم بأخذه من الأغنياء، وهي التي تقوم بتوزيعه على الفقراء، فلا تتركهم يسعون بنفوسهم في أخذ حقهم. لأن في هذا إذلالا لهم، وإلجاء لهم إلى معرة السؤال، وهذا إلى أن بعض الفقراء قد يتعفف عن السؤال فلا يصل إلى حقه، وبعض الفقراء قد يلح في السؤال فيأخذ أكثر مما يستحق.

وبهذا كله يعيش الفقراء في الإسلام سعداء بجانب الأغنياء، لا يحسدونهم على غناهم، ولا يضمرون لهم شيئا من الحقد، لأنهم يأخذون نصيبهم من ثروتهم، ويستولون عليه بطريقة لا تلحق مذلة بهم، وهم

يستولون على هذا النصيب من غير أن يكون لهم كسب فيه، وإنما هو كسب الأغنياء واجتهادهم في الحياة، وإنه ليكفي الفقراء أن يحصلوا على هذا النصيب من كسب غيرهم، ليستعينوا به في الحياة، ويضيفوه إلى كسب أيديهم، لأن عليهم أن يعملوا كما يعمل الأغنياء. ولا يجوز أن يتكلوا على نصيبهم في أموالهم.

وهناك أمر آخر لجأ إليه الإسلام في علاج ما بين الأغنياء والفقراء، وكان له أثر كبير في القضاء على الشعور بالفقر والغني بين الناس، وذلك أنه سوى في المنزلة بين الفقراء والأغنياء، فلم ينزل الفقر بأحد عنده، ولم يرفع الغني أحداً عنده، بل كان الناس سواء عنده فقراءهم وأغنياءهم، يناديهم جميعاً بأسمائهم، ولا يخص الأغنياء بألقاب ترفعهم عن غيرهم، فلم يكن في هذه الدولة ألقاب تمنح للأغنياء كغيرها من الدول، وإنما كان هناك لقب واحد منحه النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً، سواهم فيه بنفسه، وسوى فيه بينهم، وهو لقب الصاحب، وقد سرقه بعض الدول الحديثة وإن غيره إلى اسم الرفيق.

وهذا هو الذي أخذ الله تعالى به نبيه، فنهاه أن ينظر إلى الأغنياء بأكثر مما ينظر إلى الفقراء، كما قال تعالى في الآية- ٨٨- من سورة الحجر (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) وكما عاتبه في أول سورة عبس حينما تصدى لأشراف قريش وأعرض عن عبد الله بن أم مكتوم، وكان قد جاءه وهو مشتغل بدعوتهم فقال له: يا رسول الله، أقرئني

وعلمني مما علمك الله. فأعرض عنه وعبس في وجهه، فقال تعالى له في أول هذه السورة (عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى، فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكي، وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهى).

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوي بينهم جميعاً في قسمة الغنائم، فلا يميز فيها غنياً على فقير، ولا شريفاً على غيره، بل كان يعطي منها للرجل سهما. ويعطي للفارس ثلاثة أسهم، سهماً له وسهمين لفرسه، وكان يعطي أحياناً من يكون ذا أثر في الجهاد أكثر من نصيبه، مكافأة له على حسن جهاده.

وكان أيضا يسوي بينهم في الأحكام، فينفذها في الغني والفقير، ويأخذ بها القوي والضعيف، وكانت الأمم قبله تنفذ أحكامها في الضعفاء دون الأقوياء، فكان اليهود إذا زنا الشريف فيهم تركوه، وإذا زنا الضعيف أقاموا عليه الحد، وقد سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية، وكانت من أشراف قريش، فاهتم قومها بأمرها، وذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له: نحن نفديها بأربعين أوقية. فقال لهم: لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد.

وهكذا كانت مساواة عامة شاملة في هذه الدولة، فنعم بها الفقراء قبل الأغنياء، وسعد بها الضعفاء قبل الأقوياء.

(٥) نظام الحكم في الدولة

ظهر الإسلام والملوك ورجال الدين قد استبدوا بالناس، فالملوك قد استبدوا برأيهم في الحكم، واستأثروا بالأموال التي يحبونها لأنفسهم، فلم ينفقوا إلا قليلا منها في المصالح العامة، ورجال الدين قد أقاموا أنفسهم وسطاء بين الله والناس، فاستبدوا بأمور الدين، كما استبد الملوك بأمور الحكم، وتعالى كل منهم على الناس، حتى وضعوا أنفسهم في موضع الآلهة والأرباب، وحتى دان الناس لهم بالعبودية من دون الله، كما قال تعالى في الآية- **٣١**- من سورة التوبة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله).

فقضى الإسلام بظهوره على استبداد رجال الدين في الأمور الدينية، ولم يجعل بين العبد وربه واسطة كما في غيره من الأديان، ولم يجعل لرجال الدين سلطة على غيرهم، بل سوى بينهم وبين غيرهم في الدين، كما سوى بين الناس جميعاً في الدنيا، ثم قضى على استبداد الملوك في أمور الحكم، وعلى استئثارهم بأموال الدولة لأنفسهم، فجعل للرعية حقاً في مشاركتهم في أحكامهم، فلا يحكمون إلا بعد أن يأخذوا رأي رعيتهم فيها، وهذا هو حكم الشورى الذي لم يكن له وجود قبل الإسلام، فسنه الإسلام للمسلمين، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في أمور الحكم، كما قال تعالى في الآية- **١٥٩**- من سورة آل عمران (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل

على الله إن الله يحب المتوكلين) ومدح الذين يأخذون بحكم الشورى، فقال في الآية– ٣٨– من سورة الشورى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في أمورهم، ويأخذ فيها برأيهم، وكان رأيهم يخالف رأيه في بعض الأوقات، فيعمل برأيهم، ولا يؤثر رأيه على رأي جماعتهم، جمعاً للكلمة، وتعليما للحكام أن يأخذوا برأي الجماعة في الحكم، ولا يتعصبوا لرأيهم عند الاختلاف في الرأي، وقد اختلف هو وفريق من أصحابه في الخروج إلى المشركين في غزوة أحُد، فرأى هو وفريق منهم عدم الخروج إليهم، ورأى فريق آخر أن يخرجوا إليهم، وكان هذا الفريق أكثر عدداً من الفريق الأول، فأخذ برأي هذا الفريق وإن كان يخالف رأيه، لأنه أكثر عددا من الفريق الذي يوافقه في الرأي، وقد وضع بهذا أول أصل في حكم الشورى، وهو الأخذ برأي الأكثر عند الاختلاف في الرأي، ولو كان رأي الأقل أرجح من رأي الأكثر، لأن رأي النبي صلى الله عليه وسلم كان أرجح في غزوة أحد، ومع هذا تركه إلى رأي الفريق الأكثر عدداً، لأن أرجحية الرأي مسألة تقديرية، وقد يشتبه أمرها على الناس، فلا يمكن اتفاقهم عليها، فلا يبقى إلا أن يكون ذلك الأصل هو المعوّل عليه عند الاختلاف في الرأي، لأن الموازنة بين عدد المختلفين في الرأي ترجع إلى حكم الحس، فلا يمكن أن يشتبه أمرها كما تشتبه أرجحية الرأي، والاختلاف في الرأي إنما يكون في الأمور الظنية التي يعذر المخطئ فيها، فيجوز الأخذ فيها بغير الأرجح من باب أولى.

وكان الأخذ بالشورى عاما في المسلمين، فيدخل فيهم خاصتهم وعامتهم، ويدخل فيهم رجالهم ونساؤهم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في صلح الحديبية أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم ليتحللوا من عمرتهم، فلم يبادروا إلى امتثال أمره، لأنهم كانوا يرون في هذا الصلح غبناً لهم، فدخل على زوجه أم سلمة يستشيرها في أمرهم، فقال لها: هلك المسلمون، أمرتهم فلم يمتثلوا. فقالت له: يا رسول الله، أعذرهم، فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح، فهم لذلك مكروبون، ولكن إخراج يا رسول الله وابدأهم بما تريد، فإذا رأوك تبعوك. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وعمل بما أشارت به، فحلق رأسه ونحر هديه، فلما رأوه حلقوا رؤوسهم ونحروا هديهم.

ثم سلك النبي صلى الله عليه وسلم في أموال الدولة مسلكا يخالف مسلك أولئك الملوك، فكان ينفق أموال بيت المال كلها في المصالح العامة، ولم يكن يأخذ لنفسه منها إلا ما يعيش به كما يعيش فقراء المسلمين، لأنه كان يختار لنفسه مظهر الفقر، ليضرب للحكام أعلى مثل في التعفف عن أموال الدولة، ولتطيب نفوس الفقراء بإيثاره مظهرهم على مظهر الأغنياء، فلا تذل نفوسهم في الدولة، ولا تنحط منزلتهم فيها عن منزلة الأغنياء، بل تكون منزلتهم فيها سواء، ويكون أمرهم فيها واحداً.

(٦) نظام التعليم في الدولة

كان التعليم مما عُسى الإسلام بالنهوض به في هذه الدولة، لأنه كان يدخل في المقصود من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى في الآية- ٢- من سورة الجمعة (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي الآية- ١٦٤- من سورة آل عمران (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

وقد كان العرب يعرفون بين أهل الكتاب بالأميين، لأنهم لم يكونوا أهل دين وعلم، وكانت الأمية فاشية فيهم، فذكر الله تعالى في الآيتين أنه بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ليقضي على هذه الأمية، ويجعل من العرب أمة ذات دين وحكمة، والحكمة هي العلم النافع، وهي تشمل كل العلوم الدينية واللسانية والعقلية، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بما بعث من أجله فيهم، فلم يمت حتى أكمل لهم ما بعث به من الدين، ووضع لهم الأساس الذي ينهض بهم في العلم، ويوصلهم إلى معرفة العلوم التي تقضي على الأمة بينهم، وتظهر بينهم من العلماء والحكماء مثل من ظهر بين غيرهم، على اختلاف أنواعهم، وتفاوت مراتبهم.

وقد قرن الله تعالى في الآيتين الحكمة بالكتاب تنويها بفضلها ورفعاً لشأنها، لأن الأمة لا تنهض بالدين وحده، وإنما تنهض به وبالحكمة والعلم، ولهذا نوّه بفضلها منفردة في الآية- ٢٦٩- من سورة

البقرة (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب).

وكان مما قام به النبي صلى الله عليه وسلم لمحو تلك الأمية أن أخذ في نشر القراءة والكتابة بين أصحابه، حتى إنه كان يأخذ في فداء الأسير في غزوة بدر من أربعة آلاف إلى ألف درهم، فإذا لم يكن له مال وكان يحسن القراءة والكتابة جعل فداءه تعليم عشرة من غلمان المدينة، وبهذا انتشرت القراءة والكتابة بين المسلمين، حتى قل في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من لم يكن قارئاً كاتباً، ثم جعل طلب العلم فرضاً على كل مسلم ومسلمة. ونوَّه بشأن العلم والحكمة، فتنافس المسلمون في طلبهما، ولم يفرقوا فيهما بين علوم دينية وغيرها، ولم يفرقوا بين من يأخذونها منه أن كان مسلما أو غير مسلم، لأنهم قد أمروا بسؤال أهل الذكر من أهل الكتاب. فقال تعالى في الآية– ٤٣– من سورة النحل (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرية، وهي لغة اليهود من أهل الكتاب، فانتشر بهذا طلب العلم بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وشارك فيه النساء والرجال، فكان منهن معلمات كالشفاء بنت عبد الله، وكان منهن طالبات للعلم، وقد كانت الشفاء تعلم حفصة أم المؤمنين الكتابة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مسجد المدينة هو المدرسة العامة للرجال والنساء، فكان الرجال يجلسون فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الأيام التي جعلها لهم، وكان النساء يجلسن إليه في الأيام التي

جعلها لهن، وكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم مدرسة خاصة لنسائه، وكن يتعلمن فيه الكتاب والحكمة، كما قال تعالى في الآية- ٣٤- من سورة الأحزاب (واذكرن ما يستلي في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) وكانت عائشة أم المؤمنين أنبغ من تخرج من تلك المدرسة، وفيها يقول عُروة بن الزبير: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، وما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً. ويقول أبو بردة الأشعري: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً. وقد سمرت بنت أختها عائشة بنت طلحة عند هشام بن عبد الملك، فما تذكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها إلا أفاضت فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة. ولا شك أن هذا يدل على أن العلم نهض في هذه الدولة على اختلاف أنواعه، وعلى أن النهضة فيه لم تكن خاصة بالعلوم الدينية.

وقد نجحت هذه النهضة العظيمة كل النجاح، حتى كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم علماء فضلاء، يؤخذ العلم عنهم، ويفتدي فيه بهم، ولا أدل على هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم" وقد سار تلاميذهم على منوالهم، ثم سار من بعد تلاميذهم على منوالهم، حتى وصلت النهضة العلمية الإسلامية إلى ذروتها في عهد الدولة العباسية، وصارت الأمة الإسلامية حاملة لواء العلم والحكمة في العالم، وصارت مدارسها مقصد طلاب العلم والحكمة من كل الأمم.

(٧) مركز المرأة في الدولة

كانت المرأة قبل الإسلام في أحط منزلة في الحياة، فلم يكن لها حق فيها بجانب الرجل، ولم يكن هناك فرق بينها وبين الأمة التي تباع وتشترى، ومن هذا أنه لم يكن لها حق في الإرث، لأن الإرث كان مقصوراً على من يمكنه الدفاع عن الأسرة من الذكور. ومن هذا أنها كانت تورَث كما تورث التركة، فكان الرجل يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، أو يتزوجها إن كانت جميلة، فإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها. ومن هذا أنهم كانوا يستحلون وَأدَ البنات، فإذا بشِّر أحدهم بولادة أنثى اسود وجهه من الحزن، فإما أن يمسكها على هُون وذلة، وإما أن يأخذها فيدسها في التراب، وهذا هو الوأد الذي كان شائعاً بين العرب، وبلغ من تعلقهم به أنهم كانوا يقولون: دفن البنات من المكرمات.

فلما ظهر الإسلام قضى على هذا كله، ورفع منزلة المرأة في الدولة، وجعل لها فيها من الحقوق مثل ما للرجل، إلا بعض ما لا يذكر من الحقوق التي لا تؤثر في أمرها، فأعطاها حق الإرث من الأسرة، وحرم أن تورث كما تورث التركة، ونهى عن وأد البنات بأشد ما يكون من الوعيد، وأوجب الطاعة لها مثل الأب. وجعل لها حقاً في كثير من أمور الدولة كالرجل، فكان منهن المعلمات والمجاهدات والقائمات بأمور الأسواق، وما إلى هذا من أمور الدولة، وكن يشاركن الرجال في الحضور إلى المساجد، فيؤدين فيها الصلاة معهم، ويسمعن الخطب والنصائح،

ثم ينصرفن إلى بيوتهن، فيقمن بأمور المنزل، بعد أن يشاركن الرجال فيما ينهض بهن.

وقد كان لهذا أثره في نهوض المرأة في هذه الدولة، حتى إنها صارت تنافس الرجل في الحياة، وتطالب بحقوقها إذا شعرت بأنه يحاول أن يغلبها عليها، ومن هذا أنهن رأين الرجال يكادون يستأثرون بالدروس التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقيها في المسجد، فطلبن منه حقهن في هذه الدروس، فجعل لهن أياماً في الأسبوع يذهبن فيها إلى المسجد، فيأخذون من هذه الدروس مثل ما يأخذ الرجال، ومن هذا أن فتاة دخلت على عائشة فقالت لها: إن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع بي خسيسته وأنا كارهة.. فقالت لها عائشة: اجلسي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست حتى جاء فأخبرته بما فعل أبوها، فأرسل إليه فأتاه، فرد عليه ما فعل من زواجها بابن أخيه، وجعل أمرها إليها تختار من تشاء، فلما رأت هذا قالت: يا رسول الله، قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلِّم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء. إلى غير هذا مما يدل على مقدار ما وصلت إليه المرأة في هذه الدولة، وعلى أن الرجل لم يكن له أن يستبد بأمر من أمورها، كما كان يستبد بها قبل الإسلام.

نعم إن الإسلام جعل للرجال الحق في أن يكونوا قوامين على نسائهم في بيوتهم، كما قال تعالى في الآية- ٣٤- من سورة النساء (الرجال قوامون على النساء بما فضل بعضهم على بعض وبما أنفقوا من

أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطنعكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) ولكن هذا أمر خاص بالبيت فقط، لأنه صاحب البيت وصاحب ما فيه من متاع، فمن حقه أن تكون له القوامة عليه، على أن البيت لابد له من رئيس يرجع إليه في شؤونه، ويدبر أمره بالشورى التي يدبر بها أمر الدولة، والرجل أولى بهذا من المرأة، وهذا إلى أن قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء) قضية مهملة لا كلية، فلا تمنع أن تتولى المرأة أمر البيت إذا كانت تحسن التصرف فيه أكثر من الرجال، وقد سبق أن هذا الحق للرجل في أمور البيت فقط، فلا يتعداه إلى أموال المرأة الخاصة بها، وما إلى هذا من أمورها التي لا تدخل في أمور بيت زوجها.

وقد جعل الله تعالى في الآية للرجل حق تأديب المرأة، وأباح له أن يصل في التأديب إلى ضربها، وضرب النساء مكروه في الإسلام، ولكن من المكروه ما يباح اتقاء لما هو أكثر ضرراً منه، والضرورات تبيح المحظورات، فالضرب إنما يباح محافظة على رابطة الزوجية، وهو يهون إذا ترتب عليه المحافظة على هذه الرابطة، ومن النساء من تكفيه الموعظة الحسنة، ومنهن من لا يفيد فيهن إلا الضرب، وهو مع هذا ضرب خفيف يقصد به التأديب، فيكون بعصا خفيفة، ويتقي فيه الوجه ونحوه من الجسم، وهو على كل حال مباح لا واجب ولا مندوب، فإذا لم تترتب عليه فائدة لم يكن هناك معنى لارتكابه، وإذا رؤى المنع منه لم يكن هناك حرج في المنع منه.

(٨) أهداف الدولة

كانت أهداف الدولة الإسلامية تخالف أهداف غيرها من الدول، فالدول كانت ولا تزال تهدف إلى سيادة شعبها على غيره من الشعوب. فتتعارض في هذا أهدافها، وتقع به في حروب لا نهاية لها، لأن كل دولة تريد أن تسود غيرها، وتوسع ملكها بين الدول، حتى تكون أعظم دولة في الأرض، وحتى تستأثر بكل خيرات الأرض لأهلها، ولا يكون لغيرهم إلا فضلات موائدهم، وهذا هو الطمع المرذول. والجشع الممقوت، والطغيان الذي يثير الحروب بين الشعوب، ولا غاية له إلا العظمة الكاذبة، ولا هدف له إلا المجد الكاذب.

أما الدولة الإسلامية فكانت أهدافها لا ترمي إلا إلى تبليغ الدعوة الإسلامية، ولم يكن يقصد من الدعوة الإسلامية سيادة شعب على شعب، ولا طمع في ملك أو إمارة، وإنما كان يقصد منها الدعوة إلى توحيد الله، وإلى الحكم بالعدل بين الناس، وهما غايتان من أشرف الغايات، وغرضان من أشرف الأغراض، لأن عبادة الأوثان والأصنام ونحوها جهالة تحط بأصحابها، وتنزل بهم إلى مرتبة دون مرتبة الجماد أو نحوه مما يعبدونه، فإذا كانوا يعبدن إنساناً من ملك أو نحوه طغى فيهم. واستغل جهلهم في سبيل مآربه وأغراضه، وعمل على أن يبقوا في جهلهم أو يزيدوا فيه، ليبقوا على عبادتهم له، ولا يقل الغرض الثاني عن هذا الغرض نبلا، بل يكاد يساويه شرفاً وفضلا.

وقد حدد الإسلام الهدف الأول بقوله تعالى في الآية- ٦٤- من سورة آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وحدد الهدف الثاني بقوله تعالى في الآية- ٥٨- من سورة النساء (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً).

وهو يدعو إلى هذا كله بالسلم لا بالحرب، كما قال تعالى في الآية- ١٢٥- من سورة النحل (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فلا تؤدي أهداف الدولة فيه إلى حرب كما تؤدي أهداف الدول الأخرى، لأنها هي الأهداف التي يمكن اتفاق الشعوب عليها، ولا يجد شعب من الشعوب غضاضة في الأخذ بها، لأنها لا ترمي إلى سيادة شعب عليه، وإنما ترمي إلى سعادته في الدنيا والأخرى.

(٩) نظام الحرب في الدولة

لم تكن الحرب في الإسلام لأجل السيادة والفتح، فلم يكن يرغب فيها كما ترغب الدول الاستعمارية فيها، ولم يكن يقصد بها استعباد الشعوب كما تقصد هذه الدول بها هذا الاستعباد، وقد دعاه هذا إلى أن يسن في الحرب سننا جديدة تخفف من أمرها، وتقلل من شرورها، لأنه كان يرى أنها شر لا خير، فلم يجعلها حرباً انتقامية يباح فيها كل شيء،

ويطلق فيها العنان لسورة الغضب، فلا تراعى فيها رحمة ولا عدل، ولا تكون لها حدود تقف عندها ولا تتعداها. بل يجب أن تراعى فيها الحدود الآتية:

(١) أن تكون للدفاع عن النفس، وبهذا أبطل الحروب الهجومية التي كانت تقوم قبله في كل وقت، ويعتدى فيها القوي على الضعيف، فيسترقه ويستعبده، ويستبيح أرضه وماله، وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السُّنة، فلم تحارب إلا من حاربها، ولم تقمها حرباً عامة على كل من خالفها، بل حاربت قريشا أولا حين حاربتها، ثم حاربت مشركي العرب عامة حين حاربوها، ثم حاربت الروم والفُرس حين ابتدؤوها بالحرب، ومع هذا رغب الإسلام في العفو عن المعتدين، وآثر مقابلة الحرب بالسلم، إلى أن تكون الحرب ضرورة لابد منها، فقال تعالى في الآية- ٤٠- من سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين).

(٢) أن يكون الدفاع على قدر ما حصل من الاعتداء، فلا يصح أن يجاوز حده فيما استعمل فيه من آلات حربية ونحوها، بل يجب أن يكون بمثل ما حصل الاعتداء به، كما قال تعالى في الآية- ١٩٤- من سورة البقرة (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين).

(٣) أنه يجب على المسلمين الكف عن القتال إذا كف أعداؤهم، فيحرم عليه أن يمضوا فيه بعد طلب الصلح، لأن الصلح يجب عليهم إذا طلب منهم، كما قال تعالى- في الآية- ١٩٣- من سورة البقرة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وكما قال في الآية- ٦١- من سورة الأنفال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم).

(٤) أنه يجب قصر الحرب على الجيش المحارب، فلا يجوز التعرض لغيره من النساء والأطفال والشيوخ والرهبان ونحوهم، وقد روى في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد امرأة مقتولة في بعض مغازيه، فنهى عن قتل النساء والصبيان، وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صغيراً ولا امرأة". وروى أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقتلوا ذرية ولا عشيقا"[1]. وروى أحمد أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"[2].

(٥) أنه يحرم التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار، وقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسلهم في بعث فقال: "إن وجدتم فلاناً وفلاناً- لرجلين- فأحرقوهما بالنار". ثم قال حين أردنا الخروج "إني

---

(1) العسيف الأجير.

(2) أصحاب الصوامع هم الرهبان.

كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما". وروى عنه أيضاً أنه نهى عن المثلة.

(٦) أنه يحرم إتلاف الأموال إلا عند الضرورة القصوى، وقد روى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير وهم محاصرون ليحملهم على التسليم، فلما رأوه يحرقه قالوا له: إنك تنهي عن الفساد في الأرض، فما بال قطع الأشجار وتحريقها؟ فكف عن القتل والتحريق، ولهذا ذهب الأوزاعي وأبو ثور إلى كراهية التحريق والتخريب في بلاد العدو، واحتجا بأن أبا بكر كان يوصي جيوشه ألا يحرقوا ولا يخربوا.

(٧) أنه ينبغي التورع عن تجويع الأعداء بمنع الميرة عنهم، وقد روى أن ثمامة بن أثال منع ميرة اليمامة عن قريش حين أسلم، فأخذهم الجوع حتى أكلوا الجلود والجيف، فذهب أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، ثم قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع. فأمر ثمامة أن يرسل الميرة إليهم.

(٨) أنه يجب الإحسان إلى الأسير، وقد مدح الله تعالى من يطعم الأسير في الآية– ٨– من سورة الإنسان (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا) وقد ذهب الحسن وعطاء إلى أنه لا يجوز قتل الأسير، واحتجا بأن الآية– ٤– من سورة محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء) قد اقتصرت على المن والفداء، فيجب الاقتصار عليهما.

ولا شك أن هذه الحدود لم تكن موجودة في الحروب قبل الإسلام، لأنها كانت حروباً تقوم على الطمع والجشع، ومن يحارب على الطمع والجشع لا يكون في قلبه محل الرحمة، ولا يتقيد في حربه بمثل ما قيد الإسلام الحرب به.

(١٠) احترام العهود في الدولة

كان الإسلام يكره الحرب لأنها تعوق ما يدعو إليه، وتحول دون الوصول إلى غايته من هداية الناس، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، والحرب لا رحمة فيها ولا رأفة، ولهذا دعا الناس جميعاً إلى السلام، فقال تعالى في الآية- ٢٠٨- من سورة البقرة (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ثم سعى في عقد المعاهدات السلمية في الداخل والخارج، فعقد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة بين المسلمين ويهود المدينة، ومعاهدات كثيرة بينه وبين قبائل العرب قبل إسلامها، وسعى إلى مهادنة قريش في عام الحديبية، وقد أبت مهادنته فلم يزل يرغبها فيها حتى هادنته، وكان في مهادنتها شروط قاسية على المسلمين، فقبلها مع اعتراضهم عليها، ثم سعى في مهادنة ملوك عصره وأمرائهم، فبلغهم دعوته بكتب تفيض رأفة ورحمة، ولا تدعو إلى حرب أو عداء، وإنما تدعو إلى الهداية والرشاد.

وقد سعى إلى تلك العهود السلمية وهو قوي بربه، قوي بإيمانه، قوي بجنوده الذين كانوا أقوى جنود في العالم، وكان يدعوه إليها

الإخلاص للناس، ويحمله عليها إرادة الخير لهم، فلا يخفى وراءها شيئا من الغش، ولا يطوي نفسه عند عقدها على شيء من الخداع، ولا يهمه أن يكون غيره مخلصا في عقدها أو غير مخلص، لأن الله تعالى أمره بمسالمة من يسالمه وإن لم يكن مخلصا في مسالمته، كما قال تعالى في الآيتين- ٦٠، ٦١- من سورة الأنفال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله أنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين).

ولهذا أمره الله بالوفاء بالعهود، حتى يكون لها احترامها في الدولة الإسلامية، ولا تنظر إليها على أنها قصاصات من الورق، كما تنظر إليها الدول التي تقوم سياستها على الطمع والجشع، فتلجأ إلى المعاهدات في غير إخلاص، وتريد بها الغش والخداع، حتى إذا تمكنت من مطامعها تنكرت لها، ونبذتها نبذ النواة.

ولقد أكثر الله تعالى في القرآن من الأمر بالوفاء بالعهود. وحذر المسلمين من نقضها أشد تحذير، فقال تعالى في الآية- ٩١- من سورة النحل (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون) وقال في الآية- ٩٤- من سورة الإسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) وحذر من الاعتداء على قريش بعد عهد الحديبية في الآية- ٢- من سورة المائدة (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا

وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب).

وقد أباح الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينقض عهده إذا وقع ممن عاهده خيانة فيه، ولكنه أوجب عليه أن ينقضه على طريق واضح لا عوج فيه ولا التواء، فقال تعالى في الآية- ٥٨- من سورة الأنفال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) وقد قيل في تفسير الآية إنه إذا ظهرت الخيانة منهم بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض وجب عليه قبل أن يبدأهم بشيء أن يعلمهم بنبذ عهدهم، وإذا ظهرت الخيانة له بأمر مستفيض كان له أن ينبذ عهدهم من غير أن يعلمهم.

وقد بلغ من رغبة الإسلام في الارتباط بالعهود السلمية أنه يلزم الدولة بالعهود التي يعقدها أفرادها، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم". ولا تكاد توجد دولة تربط نفسها بعقود يعقدها أفرادها. أما الإسلام فإنه يرتبط بعهود أفراده ولو كانوا إناثاً أو أرقاء، ولو لم يأذن لهم الإمام في تلك العهود، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين في فتح مكة من أحمائها، فلم يقبل عليٌّ هذا منها، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بأمره، فقال لها: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ".

(١١) نظام الجاسوسية في الدولة

كان المنافقون في المدينة وما حولها جواسيس لأعداء المسلمين، يطلعونهم على أخبارهم، ويجتهدون في معرفة أسرارهم ليطلعوهم عليها، كما قال تعالى في الآية- ٤٧- من سورة التوبة (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين).

فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ جواسيس من المسلمين، ليعملوا له بإزاء جواسيس الأعداء، ويقوموا في السر بإفساد خططهم، ويطلعوه على مؤامراتهم، ويندسوا بين أولئك الأعداء كما يندس جواسيسهم بين المسلمين، فيعرفوا أخبارهم وأسرارهم، وليس في هذا ما يؤخذ على الإسلام. وإنما هو من اليقظة التي يجب أن يأخذ بها المسلمون، حتى لا يأخذهم عدوهم على غرة، ولا يعيشوا في جهل بما يدبر لهم، وإنما يعيب المسلمين أن يأخذوا في تجسسهم بوسائل غير شريفة، كاستخدام النساء فيها استخداماً غير شريف، ونحو هذا مما تلجأ إليه الجاسوسية في الدول التي لا يهمها الشرف في الوصول إلى غايتها، وقد عاب المنافقون تجسس النبي صلى الله عليه وسلم، فرد الله تعالى هذا عليهم في الآية- ٦١- من سورة التوبة (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) فرد عليهم بأنه لا عيب عليه في ذلك، لأنه لا يريد به إلا أن يعيش المسلمون في

أمان من أعدائهم، ولا يقصد به شراً لغيرهم، فهو من الحذر واليقظة المحمودة، وليس فيه شيء يعاب أو يذم.

نعم كان النبي صلى الله عليه وسلم يدفع بعض المسلمين الذين يعملون في السر إلى اغتيال بعض أعدائه، ولكنه لم يفعل هذا إلا مرتين أو ثلاثاً، ومع أناس كانوا يؤلبون عليه الأعداء، ويجمعون القبائل لحربه، مثل كعب بن الأشرف وأبي رافع سلام ابن أبي الحقيق، وكانا من أخطر اليهود على الإسلام، وكل منهما كان يعمل في السر لجمع القبائل على حرب المسلمين والقضاء عليهم، فكان اغتيالهما في سبيل الدفاع عن النفس، والدفاع عن النفس مشروع في كل الشرائع، وقد تكون هذه الوسيلة في الدفاع عن النفس أقل ضرراً من الحرب التي تقوم جهراً، فيكثر فيها القتل، ويعم فيها الضرر، أما هذه الوسيلة فإنها خفية قد يجهل الفاعل فيها، فلا تقوم حرب بسببها، ولا يتعدى القتل ما حصل فيها.

(١٢) نظام بيت المال

كان كل مال الدولة قبل الإسلام للملوك والأمراء، وكانوا ينفقونه على أنفسهم وبطانتهم في أقصى ما يكون من التبذير، ولا يبقون منه لمصالح الرعية إلا القليل، فلما ظهر الإسلا م جعل مال الدولة من حق بيت المال، فلا يأخذ منه رئيس الدولة إلا أجره الذي يفرضه المسلمون له، ويكون شأنه في هذا شأن الأجير، يستحق ما يأخذه على عمله، ولا يأخذ من بيت المال إلا ما يستحقه عليه، فلا يكون هناك إسراف ولا

محاباة له، وإنما يأخذ ما يقوم بنفقته ونفقة أهله، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ لنفسه قوت سنة، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السنة في وجوه الخير، ثم يفترض ما ينفقه على نفسه باقي السنة، ولهذا توفي ودرعه مرهونة على شعير استدانة لأهله.

وكانت موارد بيت المال ثلاثة موارد:

١- الزكاة، وكان ينفق منها على الأصناف الواردة في الآية- ٦٠- من سورة التوبة (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) وقد أبطل عمر بن الخطاب في خلافته ما يعطي للمؤلفة قلوبهم، لأن الإسلام استغنى في خلافته عن تأليفهم.

٢- الغنائم، وهي ما أخذه المسلمون بالقتال، وكانت تقسم خمسة أخماس، يعطي خمس منها للنبي صلى الله عليه وسلم، ويعطي أربعة أخماسها للمقاتلين، وكان الخمس الأول يقسم خمسة أسهم: سهم للنبي صلى الله عليه وسلم ينفقه في الكراع[1] والسلاح، وسهم لذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وقد ذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت لهم، فيجوز إعطاؤه لغيرهم، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وقد ذهب أصحاب الرأي إلى جواز قصر هذا الخمس على اليتامى والمساكين وابن السبيل، وذهب كثير من

[1] هو خيل الجهاد، والكراع اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

الفقهاء إلى أن الغنائم إذا كانت من غير المنقولات يجوز للإمام أن يقسمها بين الغانمين، وأن يتركها لأهلها على خراج أو على معاملة من غلتها، وأن يُمنَّ بها عليهم، ولا يخفى أن هذا يجوز في المنقولات أيضاً، لأن النبي صلى الله عليه وسلم رد على بعض القبائل منقولاتهم، ولا يخفى أيضاً أنه يجوز أن يعطي المقاتلون مرتبات من بيت المال، على أن يستولى بيت المال في نظير هذا على الغنائم.

٣- الفيء، وهو ما يؤخذ من غير قتال، كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة، وهذا من حق بيت المال، فلا يخمس كما تخمس الغنائم، بل يصرف جميعه مصرفاً واحداً، ولجميع المسلمين فيه حق، لا فرق بين كبير وصغير، وأمير وغير أمير، فيعطي كل واحد منهم ما يستحقه، وينفق منه على مصالحهم.

(١٣) ديوان الدولة

يظن كثير من الناس أن الديوان الإسلامي لم ينشأ قبل خلافة عمر بن الخطاب، والحقيقة أن هذا الديوان نشأ قبل خلافته، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فكان يستعين بالكتّاب من أصحابه في كتابة الوحي، وفي غير هذا من أموره، والذي حصل في عهد عمر بن الخطاب أنه اتخذ له نظاماً جديداً، وكتاباً يعملون فيه بأجر، وقد كان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يتطوعون بكتابتهم له، ولا يأخذون أجراً عليها، لأنهم لم ينقطعوا لها كما انقطع كتاب الديوان في خلافة

عمر، وقد كانت أعمال الدولة قليلة محصورة، وكان ما في بيت المال ينفق أولا بأول، فلم يقتض هذا كتاباً ينقطعون له، ويأخذون أجراً عليه.

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين كاتباً، وكان لكل عمل كتابي كاتب أو أكثر يقوم به، فمنهم من كان يقوم بكتابة الشؤون الخارجية، كعبد الله بن الأرقم، وكان يجيب الملوك والأمراء عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويقرأ له ما يكتبونه إليه، وقد بلغ من ثقته به في هذا الشأن أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك، فيكتب ويختم ولا يقرأ ما يكتبه عليه لثقته فيه.

ومنهم من كان يقوم بكتابة الوحي، وكان رئيسهم زيد ابن ثابت الأنصاري، وقد كان القرآن ينزل مفرقاً على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال، فكانوا يكتبون ما ينزل منه في العُسب واللخاف والأكتاف[1].

ومنهم من كان يقوم بكتابة المداينات والمعاملات، كالمغيرة ابن شُعبة والحصين بن نمير.

ومنهم من كان يقوم بالكتابة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم في حوائجه، كخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان.

ومنهم من كان يقوم بحرص الثمار وكتابة ما عليها من الزكاة، كحديفة بن اليمان.

([1]) العسب أصل السعف الذي لا يثبت عليه الخوص من الجريد، واللخاف حجارة بيض زفاق، والاكتاف جمع كتف وهو عظم اللوح من الحيوان.

ومنهم من كان يقوم بكتابة الغنائم وتوزيعها على المقاتلين على حسب القواعد الموضوعة لقسمتها، كمعيقب بن أبي فاطمة.

ومنهم حنظلة بن الربيع، وكان يخلف كل كاتب في عمله إذا غاب عنه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع عنده خاتمه، ويقول له: "الزمني وأذكرني بكل شيء أنا فيه". فكان لا يأتي على مال أو طعام ثلاثة أيام إلا أذكره، فلا يبيت وعنده شيء منه.

خاتمة

عظة السياسة النبوية

لا شك أن من يطالع السيرة النبوية على هذا الترتيب الذي وضعته لها يجد أن السياسة الحكيمة كان لها أثر بارز في توجيهها، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ينتظر الوحي في كل أموره، ولم يكن يجرى عليه في كل حركاته وسكناته، بل كان يتصرف كإنسان في كثير من الأمور، ويأخذ بالاجتهاد فيما يتركه الوحي لاجتهاده، فيسلك من ضروب السياسة ما يهيئ له أسباب النجاح، ولا يترك أموره تجري كيف تشاء، بل يتخير لها السبل والأسباب، حتى يصل إلى الغاية التي يقصدها من أقرب طريق، ولا يترك نفسه للأحداث تصرفه في الحياة، وتأخذه قبل أن يأخذها، فلا يستطيع أن يعمل فيها شيئاً، ولا يمكنه أن يصرِّف فيها أمرا، بل تتصرف هي بأمره، وتأخذ به إلى حيث تريد، ولا تمكنه من أن يصل إلى ما يريد.

فإذا درس المسلمون السيرة النبوية على ذلك الترتيب، وتأملوا في ضروب السياسة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد عليها في نجاح أموره، وعرفوا كيف كان يتخير ويتحيل، وكيف كان يضع الأسباب قبل المسببات، وكيف كان يرمي إلى المقاصد والغايات، ولا يترك نفسه لأحداث الدهر وتقلباته- إذا درسوا ذلك كله اتخذوه نبراساً لهم في حياتهم، فأخذوا فيها بضروب السياسة التي تهيئ لهم أسباب النجاح،

وأعدوا لكل أمر عُدته، وهيئوا لكل شيء أسبابه، فلا تلعب بهم حوادث الدهر، ولا تأخذهم على غرة وغفلة، ولا يسبقهم أعداؤهم في ميدان العمل، ولا يفوزون عليهم في هذه الحياة، ولا يأخذونهم بمكر أو خداع، ولا يستأثرون دونهم بتصريف أمور الحياة، ولا يجعلونهم ذيولا بين الدول الشعوب، ولا يكون شأنهم بينهم كمن قيل فيهم:

ويقضي الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأذنون وهم حضور

وإذا عرفوا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوس أصحابه بالرفق، ويأخذ من ينحرف منهم عن دينه باللين، وعرفوا كيف نجح فيمن كان منهم مخلصاً لدينه، وفيمن لم يكن مخلصاً له، إذا عرفوا هذا أخذ بعضهم بعضاً بالرفق، ولم يخرجوا فيما بينهم عن الأصل الذي قام عليه الإسلام، وهو الإقناع بالدليل، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا يكون بينهم شتم ولا سباب، ولا يكون بينهم عداء ولا خصام، بل عيشة حرة كريمة، ووفاق كامل شامل، وتعاون تام فيما ينفعنا في الدنيا، والآخرة.

الفهرس